



تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الطبعة الخامسة

١٣٤٩ — ١٩٣٠

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا من أوضحت لنا سبل الهداية ، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية ، ونصلي ونسلم على من أرسلته شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان يبتغون من الله الفضل والرضوان ، والأنصار الذين آووا ونصروا وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما ادخروا

﴿أما بعد﴾ فيقول محمد الخضرى بن المرحوم الشيخ عفيفى الباجورى : كنت أجد من نفسى منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين وأجدها لعقل الانسان أحسن مهذب وأنصح معلم ، وكنت أرى فى تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده أعظم مرب لأفكار المسلمين ، فانه يدلهم على ما يجب اتباعه وما يلزم اجتنابه ليسودوا كما ساد سابقوهم ، وخصوصاً ما يتعلق بالحكام من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة ، وما يتعلق بقواد الجيوش من تأليف الرجال وإحكام المعدات حتى يتم لهم النصر على أعدائهم ، وما يتعلق بالعامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على من سواهم . فكنت أجد من قراءتها ارتياحاً عظيما وكانت نفسى كثيراً ما تأسف على ترك المسلمين لها ؛ فقلما

أجد من يشتغل بها ولكنى كنت أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع. فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتنى النوادى مع محمود بك سالم القاضى بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علما بدينه تقف دونه فحول الرجال وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال، فقلما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرزاً فيها مفصحاً عن الجواب عنها، أما علمه بسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فعنده منها الخبر اليقين. وكنت كثيراً ما أسمعه يتشوف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين فقلت: يالله! لقد وافق هذا السيد الكريم مافى نفسى ولكنى كنت أرى فى عزيمتى قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته فان المقام عظيم وصعوباته أعظم، ولكن لم أر من الأمر بداً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة فانهم أكثروا من الأمانى لعمل هذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة. فقمت معتمداً على الله راجيا منه أن يوفقنى لما فيه رضاه، وواصلت السير بالسرى حتى بلغت المنى فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة وترجع اليه الخاصة. وقد كان موردى فى تأليفه القرآن الشريف وصحيح السنة مما رواه الامامان البخارى ومسلم ولم أخرج عنهما إلا فيما لابد من تفهيم العبارات فكان يساعدنى الشفاء للقاضى عياض والسيرة الحلبية والمواهب اللدنية للقسطلانى وإحياء علوم الدين للغزالى. هذا وأسأل الله من فيض فضله أن يوفق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإحياء معالم دينه حتى يؤيدوا بروح من عند الله. وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول:

النسب الشريف

السيد الأكرم الذى شرف الناس بوجوده هو (محمد بن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية [1] القرشية (إبن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية [2] القرشية. وكان عبد المطلب شيخاً معظماً فى قريش يصدرون عن رأيه فى مشكلاتهم ويقدمونه فى مهماتهم (إبن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية [3] الخزرجية (إبن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية [4] (إبن قصى) من زوجه حبى بنت حليل الخزاعية [5]. وكان إلى قصى فى الجاهلية حجابة البيت وسقاية الحاج وإطعامه المسمى بالرفادة والندوة وهى الشورى لايتم أمر إلا فى بيته، واللواء لاتعقد راية لحرب إلا بيده ولما أشرف على الموت جعلها فى يد أحد أولاده عبد الدار، لكن: بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على أن لايتركوا بنى عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر وكاد يفضى الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين فأعطوا بنى عبدمناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبدالمطلب ثم لبنيه من بعده.

(١) من بنى زهرة بن كلاب من قريش

(٢) من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش

(٣) من بنى النجار من الخزرج والخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان بالمدينة وهما الأوس والخزرج وهما اخوان وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا أنصاراً

(٤) من بنى سليم بن منصور إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر

(٥) من بنى خزاعة ابن عمرو إحدى قبائل قمعة بن إلياس بن مضر وهم الذين كانوا يلون البيت قبل قريش

أما الحجابة فبقيت بيد بنى عبد الدار وأقرها لهم الشرع فهى فيهم إلى الآن
وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ،
وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الإسلام وجعله حقاً للخليفة على المسلمين
يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة . وقصى (بن كلاب) من زوجه
فاطمة بنت سعد وهى يمانية من أزد شنوءة (إبن مرة) من زوجه هند
بنت سرير من بنى فهر بن مالك (إبن كعب) من زوجه وحشية بنت
شيبان من بنى فهر أيضاً (إبن لؤى) من زوجه أم كعب مارية بنت
كعب من قضاعة (إبن غالب) من زوجه أم لؤى سامى بنت عمرو
الخزاعى (إبن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل ، وفهر
هو قريش — فى قول الأكثرين — وكانت قريش اثنتى عشرة قبيلة:
بنو عبد مناف وبنو عبد الدار بن قصى وبنو أسد بن عبد العزى بن قصى
وبنو زهرة بن كلاب وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة
وبنو عدى بن كعب وبنو سهم بن هصيص بن عمرو بن كعب وبنو عامر
ابن لؤى وبنو تيم بن غالب وبنو الحارث بن فهر وبنو محارب بن فهر ،
والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح والذين بضواحيها قريش
الظواهر (إبن مالك) من زوجه جندلة بنت الحرث من جرهم (إبن
النضر) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان (إبن كنانة) من
زوجه برة بنت مر بن إد (إبن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من
قيس عيلان (إبن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة (إبن
الياس) من زوجه خندف المضروب بها المثل فى الشرف والمنعة (إبن مضر)

من زوجه الرباب بنت جندة بن معد (إبن نذار) من زوجه سودة بنت عك (إبن معد) من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم (إبن عدنان) .

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين ، أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق، غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهى إلى إسماعيل بن ابراهيم أبى العرب المستعربة . نسب شريف كما ترى : آباء طاهرون وأمهات طاهرات ، لم يزل عليه السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً فهو من صميم قريش التى لها القدم الأولى فى الشرف وعلو المكانة بين العرب ولا تجد فى سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة ، وكذلك أمهات آبائه من أرفع قبائلهن شأناً . ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية ولم ينل نسبه شىء من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله .

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه اليه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وسنه ثمانى عشرة سنة وهى يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، ولما دخل عليها حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلبث أبوه أن توفى بعد الحمل بشهرين ودفن بالمدينة عند أخواله بنى عدى بن النجار : فانه كان ذهب بتجارة الى الشام

فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت ولدها فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذى بث فى أرجائه روح الآداب وتمم مكارم الأخلاق . وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكى أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من ابريل سنة ٥٧١ من الميلاد وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل[1] وكانت ولادته فى دار أبى طالب بشعب بنى هاشم وكانت قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه محمداً ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب ولكن أراد الله أن يحقق ماقدره وذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء كالتوراة والانجيل فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أَمَةُ أبيه عبد الله وأول من أرضعه ثويبة أَمَةُ عمه أبى لهب .

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم فى البوادى ليكون أنجب للولد وكانوا يقولون : إن المربَّى فى المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة فجاءت نسوة من بنى سعد بن بكر يطلبن أطفالا

(١) حادثة شهيرة حصلت بمكة فأرخت بها العرب كعادتهم هم وكل أمة فى التاريخ بالأمور المهمة وقد ذكر القرآن هذه الحادثة فى سورة الفيل وحاصلها أن ملكا من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حمير أغار على مكة وقصد هدم كعبتها وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله فاكراماً للنبى المنتظر وغيرة على بيته الكريم جعل الله كيد الأعداء فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول وأراح قريشا من عناء مقاومتهم اه .

يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية واسم زوجها أبو كبشة وهو الذى كانت قريش تنسب له الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء ! ودرت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات [١]

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهى شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته الى أمه وحدثتها قائلة : بينما هو وإخوته فى بُهْمٍ لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه [٢] فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه [٣] فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بنى ؟ فقال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟؟ قال نعم . فأقبلا يبتدرانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ماهو .

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبى طالب

ثم إن أمه أخذته منها وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار وبينما هى عائدة أدركتها منيتها فى الطريق فماتت بالأبواء [٤]

---

(١) السيرة الحلبية (٢) يحركانه بسوط (٣) شبيهاً بالنقع وهو التراب
(٤) قرية بين مكة والمدينة وهى أقرب إلى المدينة

حضنته أم أيمن وكفله جده عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له في ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً عظيماً في المستقبل وكان يكرمه غاية الاكرام ولكن لم يلبث عبد المطلب أن تُوفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيما وعليه غيوراً . وكان أبو طالب مقلا من المال فبارك الله له في قليله ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما ييسره الله له

السفر إلى الشام

ولما بلغت سنه عليه السلام اثنتي عشرة سنة أراد عمه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه فرق له وأخذه معه وهذه هي الرحلة الأولى ولم يمكثوا فيها إلا قليلا وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بصرى [١] بحيرا الراهب فسألهم عما رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبي من العرب في هذا الزمن فقالوا إنه لم يظهر للآن وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول (فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [٢]

---

(١) قرية على الحدود بين بلاد الشام وبلاد العرب (٢) سورة البقرة

حرب الفجار

ولما بلغت سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفجار وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس، وسببها أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة [١] تجارة يرسلها كل عام الى سوق عكاظ [٢] لتباع له وكان يرسلها فى أمان رجل ذى منعة وشرف فى قومه ليجيزها فجلس يوماً وعنده البراض بن قيس الكنانى وكان فاتكا خليعاً خلعه قومه لكثرة شره وعروة ابن عتبة الرحال فقال: من يجيز لى تجارتى هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ ؟ فقال البراض: أنا أجيزها على بنى كنانة ، فقال النعمان: إنما أريد من يجيزها على الناس كلهم ؟ فقال: عروة أبيت اللعن [٣] أكلب خليع يجيزها لك ؟ ! أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد [٤] وتهامة [٥] فقال البراض: أو تجيزها على كنانة ياعروة ؟ قال وعلى الناس كلهم . فأسرّها فى نفسه وتربص له حتى اذا خرج بالتجارة قتله غدراً ثم أرسلوا رسولا يخبر قومه كنانة بالخبر ، ويحذرهم قيساً قوم عروة . وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشا وكنانة بنخلة [٦] فاقتتلوا

(١) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس فتحها خالد ابن الوليد فى السنة الثانية عشرة (راجع إتمام الوفاء)

(٢) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيها تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب وهى أشبه فى ذلك بمعارض أوربا الان

(٣) تحية عربية ومعناها باعدت كل ما استحق المذمة

(٤) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها

(٥) هو ماانخفض من سواحل البلاد العربية والشرقى منها يسمى البحرين والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز فى الغرب واليمامة فى الشرق (٦) موضع بين مكة والطائف

ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله ، ثم إن قيساً قالوا لخصومهم : إنا لا نترك دم عروة فموعدنا عكاظ العام المقبل وانصرفوا الى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً . فلما حال الحول جمعت قيس جموعها وكانت معها ثقيف وغيرها وجمعت قريس جموعها من كنانة والأحابيش وهم حلفاء قريش وكان رئيس بنى هاشم الزبير بن عبدالمطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبى الكريم، وكان على بنى أمية حرب بن أمية وله القيادة العامة لمكانه فى قريش شرفاً وسناً ، وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ثم تناجزوا الحرب فكان يوما من أشد أيام العرب هولاً ، ولما استحل فيه من حُرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سمى يوم الفجار . وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان . وهكذا انتهت هذه الحرب التى كثيرا ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور حتى ألف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الاسلام بينهم

حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول فتم فى دار عبد الله بن جدعان التميمى أحد رؤساء قريش وكان المتحالفون

بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف وإبنى أسد بن عبد العزى وابنى زهرة بن كلاب وابنى تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته وقد حضر هذا الحلف رسول الله عليه السلام مع أعمامه وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة : (لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أُحب لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت) وذلك لأنه عليه السلام مبعوث بمكارم الأخلاق وهذا منها وقد أقر دين الاسلام كثيراً منها ، يرشدك الى هـذا قوله عليه السلام : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرة الثانية وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية (١) كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه ، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصدق الحديث مالم تعرفه فى غيره حتّى سماه قومه الأمين إستأجرته ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيما وظهر للسيد الكريم فى هذه السفرة من البركات ما حببه فى قلب ميسرة غلام خديجة .

---

(١) من بنى اسد بن عبد العزى بن قصى

زواجه خديجة

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سُرَّت من الأمين عليه السلام وأرسلت إليه تخطبه لنفسها وكانت سنها نحو الأربعين وهى من أوسط قريش حسباً وأوسعهم مالاً فقام الأمين عليه السلام مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبى طالب فزوجها عمها ، وقد خطب أبو طالب فى هذا اليوم فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضئ[1] معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلا وفضلا وإن كان فى المال قل فان المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردَّة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا) . وعلى ذلك تم الأمر . وقد كانت متزوجة قبله بأبى هالة توفى عنها وله منها ولد إسمه هالة وهو ربيب المصطفى عليه السلام

بناء البيت

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها فانها كانت رضيمة[2] فوق القامة

(١) أصل (٢) بناء رضيم مبنى بالصخر اه من أساس البلاغة

فاجتمعت قبائلهم لذلك ولـكنهم هابوا هدمها لمكانها فى قلوبهم . فقال لهم الوليد بن المغيرة : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا : بل الإصلاح ، قال إن الله لايهلك المصلحين ، وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل وهناك وجدوا صحافاً تقش فيها كثير من الحـكم على عادة من يضعون أسـاس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين . ثم ابتدأوا فى البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغى ولا بيع ربا وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل ، وكان الذى يلى البناء نجار رومى اسمـه باقوم ، وقد خصص لـكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الـكعبة . ولما تم البناء ثمانى عشرة ذراعاً بحيث زيد فيه عن أصله تسع أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لايصعد إليه إلا بدرج أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه فاختلف أشرافهم فيمن يضعه وتنافسوا فى ذلك حتى كادت تنشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هـذا الخصام أربع ليال ، وكان أسن رجل فى قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومى عم خالد ابن الوليد فقال لهم : ياقوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه ، فقالوا : نكل الأمر لأول داخل ، فـكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام فاطمأن الجميع له لما يعهدوه فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد لأنهم كانوا يتحاكمون اليه .

إذ كان لا يدارى ولا يمارى ، فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب،ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعه فيه . وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيراً ما يكون أمثالها سبباً فى انتشار حروب هائلة بين العرب لولا أن منّ الله عليهم بعاقل مثل أبى أمية يرشدهم إلى الخير وحكيم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضى بينهم بما يرضى جميعهم،ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا لأن البيت قبلة العرب وكعبتهم التى يحجون اليها فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم قال تعالى فى سورة آل عمران (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) وكان يلى أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جُرْهم فلما بغوا وظلموا من دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ووليته خزاعة حيناً من الدهر ثم أخذته منهم قريش فى عهد قصىّ بن كلاب وبسببه أمنوا فى بلادهم فكانت قبائل العرب تهابهم ، وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين وامتن الله عليهم بذلك فى تنزيله فقال فى سورة القصص (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِنا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

معيشته عليه السلام قبل البعثة

لم يرث عليه السلام من والده شيئاً بل ولد يتيما عائلا فاسترضع فى بنى سعد ، ولما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع

إخوته من الرضاع فى البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخارى فى صحيحه . ووجود الأنبياء فى حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لابد منه لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ، ولذلك ترى جميع الشرائع الالهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا وكذلك كان موسى وإبراهيم . وكانت حالتهم فى صغرهم ليست سعة بل كلهم سواء تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجا لمتبعيهم فى الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها وذلك سبب البلايا والمحن وكذلك رعاية الغنم، فما من نبى إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق فى حديث للبخارى ، وهذه أيضا من بالغ الحكم فان الانسان إذا استرعى الغنم وهى أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفا، فاذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزى فيكون فى أعدل الأحوال . ولما شب عليه السلام كان يتجر وكان شريكه السائب بن أبى السائب وذهب بالتجارة لخديجة رضى الله عنها الى الشام على جعل يأخذه . ولما شرفت خديجة بزواجه وكانت ذات يسار عمل فى مالها وكان يأكل من نتيجة عمله وحقق الله ما امتن عليه به فى سورة الضحى بقوله جل ذكره : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) بالإيواء والإغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة، هداه للكتاب والإيمان ودين ابراهيم عليه السلام ولم يكن يدرى

ذلك قبل . قال تعالى فى سورة الشورى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ روحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)

سيرته فى قومه قبل البعثة

كان عليه السلام أحسن قومه خلقاً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال حتى كان أفضل قومه مروءة وأكرمهم مخالطة وخيرهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً فسموه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء حتى شهد له بذلك ألدّ أعدائه النضر بن الحارث من بنى عبد الدار حيث يقول : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر ! ! لا والله ما هو بساحر، قال ذلك فى معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . ورد ذلك فى أول صحيح البخارى. وقد حفظه الله فى صغره من كل أعمال الجاهلية التى جاء شرعه الشريف بضدها [1] وبغضت اليه الأوثان بغضا شديداً حتى ما كان يحضر لها

---

(١) الشفاء للقاضى عياض

احتفالا أو عيداً مما يقوم به عبادها ، وقال عليه السلام : (لما نشأت بغضت الىّ الأوثان وبغض الىّ الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته. قلت ليلة لغلام كان يرعى معى لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ولم أقض شيئاً ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك) وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على النصب [1] وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه فى قومه شيوعا عظيما وذلك كله من الصفات التى يحلى الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها . أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذى سيسند اليهم وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم ، عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات

ما أكرمه الله به قبل النبوة

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعا فيهم فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبنا. ويرحم الله البوصيرى حيث يقول فى همزيته .

---

(١) هى حجارة تنصب نصب عليها دماء الذبائح وتعبد

واذا سخر الاله أناساً لسعيد فانهم سعداء

ثم أعقب ذلك ما حصل من صدره وإخراج حظ الشيطان منه وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى،فمن استبعدذلك كان قليل النظر لايعرف من قوة الله شيئاً لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب . ومن المكرمات الالهية تسخير الغمامة له فى سفره الى الشام حتى كانت تظله فى اليوم الصائف لا يشترك معه أحد فى القافلة كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذى كان مشاركا له فى سفره ، وهذا ما حببه الى خديجة حتى خطبته لنفسها وتيقنت أن له فى المستقبل شأنا ولذلك لماجاءته النبوة كانت أسرع الناس إيمانا به ولم تنتظر آية أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الاخلاق وما سمعته من خوارق العادات . ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار [1] فكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لايرى بيناء ويفضى الى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يارسول الله وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً ، وقد حدث بذلك عن نفسه وليس فى ذلك كبير إشكال فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله: فعصاموسى التقمت ما صنع سحرة فرعون بعد أن تحولت حية تسعى ثم رجعت كما كانت ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتى عشرة عيناء لكل سبط من أسباط بنى اسرائيل عين . وكذلك غيره من الأنبياء سخر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم .

(١) السيرة الحلبية

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن ونوه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطابا لسيدنا موسى عليه السلام [1] : (وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شىء آمره به ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا الذى أنتقم منه ، فأما النبي الذى يجترئ على بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل. واذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك إن ماقاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لاتخشاه) ويقول اليهود إن هـذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام مع أنهم كانوا ينتظرون فى مدة المسيح نبيا آخر غير المسيح فانهم [2] أرسلوا ليوحيا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له أنت إيليا ؟ فقال لا فقالوا أنت المسيح فقال لا فقالوا أنت النبي فقال لا فقالوا مابالك اذا تعمد اذا كنت لست ايليا ولا المسيح ولا النبي فهذه تدل على أن التوراة تبشر بايليا والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح، ثم ان التوراة تقول فى صفة النبي إنه مثل موسى وقد نصت فى آخر سفر التثنية على أنه لم يقم فى بنى اسرائيل نبي مثل موسى وورد فى هذه البشارة أن النبي الذى يفترى على الله يقتل ويشبه ذلك فى القرآن قوله تعالى فى سورة الحاقة (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

---

(١) الاصحاح الثامن سفر التثنية

(٢) الاصحاح الأول من انجيل يوحنا

الأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ)[1] ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ويهود ثلاثا وعشرين سنة يدعوهم فيها الى الله ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطمينا لخاطره فى سورة المائدة (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) أكان يعجز الله وهو القادر على كل شىء أن يعاقب من ينسب اليه مالم يقله وهو الذى قال فى سورة الشورى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التى نعرف بها صدق النبى من كذبه وهى الإخبار بما سيأتى، وقد أخبر النبي عليه السلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها ومنها مالا ينفع معه الحدس والتخمين كالإخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم فالإخبار اذاً بأن الروم سيردون مافقد منهم بعد بضع سنين لايكون إلا من عند الله ، ولذلك استغربه جدا بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضى الله عنه وقد حقق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى .

وروى القاضى عياض فى الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه السلام فقال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

(١) عرق فى القلب اذا انقطع مات صاحبه

شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً . وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب[1] فى الأسواق،ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به أعينا عمياً وآذانا صما وقلوباً غلفاً

وروى مثله عن عبدالله بن سلام رضى الله عنه وهو الذى كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم وكذلك كعب الأحبار وفى بعض طرق الحديث:ولا صخب فى الأسواق ولا قوال للخنا أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة مقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأسمى به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس . وقد أخبر عليه السلام عن صفته فى التوراة فقال وهو الصادق الأمين عبدى أحمد المختار مولده مكة ومهاجَرُه بالمدينة أو قال طيبة وأمته الحمادون الله على كل حال .

تبشير الانجيل

بشر عيسى عليه السلام قومه فى الأنجيل بالفارقليط ومعناه قريب

---

(١) شديد الصوت

من محمد أو أحمد ويصدقه فى القرآن قول الله تعالى فى سورة الصف (وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لاتنطبق إلا على نبينافقال انه يوبخ العالم على خطيئته وانه يعلمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل مايسمع ، وهذا ماورد فى القرآن الكريم فى سورة النجم (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) وقد ورد فى انجيل برنابا الذى ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب (١) الجهالة ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة .

حركة الأفكار قبل البعثة

وهــذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر فقدحدث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا إنما دعانا للإسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنا نسمع من أحبار يهود، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكثيراً مانسمع ذلك منهم.فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم

(١) ترجم إلى العربية وهو الآن مطبوع بمصر

اليه فآمنا وكفروا وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته عليه السلام فى كتبهم أن هـذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغى سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة . وكان أمية بن أبى الصلت المتنصر العربى كثيراً مايقول : إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا . وحدث سلمان الفارسى رضى الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً فكان يقول له ياسلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرج من جبال تهامة علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان . ولما راسل عليه السلام ملوك الأرض لم يهن كتابه إلا كسرى الذى ليس عنده علم من الكتاب، أما جميع ملوك النصارى كالنجاشى ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر وقيصر ملك الروم فأكرموا وفادة رسله ومنهم من آمن كالنجاشى ومنهم من رد رداً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ومنهم من هادى كالمقوقس ولم يكن عليه السلام فى قوة يرهب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتى من بعده ووافقت صفات رسولنا ماعندهم فأجابوا بالتى هى أحسن ، أما ماسمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو مالا يدخل تحت حصر وليس بعد ماذكرته لك زيادة لمستكثر ومع ذلك كله فالأعمال التى جاد الله بها على يديه والأقوال التى أتانا بها أعظم مقو لحجته ومؤيد لدعوته . وسيأتى عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد هداك الله الى الصراط السوى .

بدء الوحى

لما بلغ عليه السلام سن الكمال وهى أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة الى نور العلم وكان ذلك فى أول فبراير سنة ٦١٠ من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكى تبين بعد دقة البحث أن ذلك كان فى ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو سنة ٦١٠ وأول مابدئ به الوحى الرؤيا الصادقة فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وذلك لما جرت به عادة الله فى خلقه من التدريج فى الأمور كلها حتى تصل الى درجة الكمال. ومن الصعب جدا على البشر تلقى الوحى من الملك لأول مرة، ثم حبب اليه عليه السلام الخلاء ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق الى الله فان فى العزلة وصفاء السريرة وكان يخلو بغار[1] حراء فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد فتارة عشرا وتارة أكثر إلى شهر، وكانت عبادته على دين أبيه ابراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فبينما هو قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال: أبشر يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ثم قال له: إقرأ، قال: ما أنابقارئ فانه عليه السلام أمى لم يتعلم القراءة قبلا فأخذه فغطه بالنمط الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ. فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله فقال:

---

(١) جبل على مقربة من مكة

إقرأ . قال : ما أنا بقارئ ، فأخذه فغطه الثالثة ، ثم أرسله فقال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) فرجع بها عليه السلام يرجف فؤاده مما ألمّ به من الروع الذى استلزمته مقابلة الملك لأول مرة فدخل على خديجة زوجه ، فقال : زملونى [1] زملونى لتزول عنه هـذه القشعريرة فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى ، لأن الملك غطه حتى كاد يموت ولم يكن له عليه السلام علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله فقالت: كلا والله مايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك. ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل بن عم خديجة وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره عليه السلام خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هـذا الناموس الذى نزل الله على موسى لأنه يعرف أن رسول الله إلى انبيائه هو جبريل ثم قال : ياليتنى فيها جذعا (شابا جلدا) إذ يخرجك قومك من بلادك

(١) لفونى فى ثوبى

التى نشأت بها لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم فاستغرب عليه السلام مانسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول حتى سموه الأمين وقال: أو مخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى . وقد نطق بذلك القرآن الكريم . قال تعالى فى سورة ابراهيم (وقال الّذين كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) . ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه السلام قال : وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً (معضدا) ثم لم يلبث ورقة أن توفى.

فترة الوحى

وفتر الوحى مدة لم يتفق عليها المؤرخون ، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً ليشتد شوق الرسول للوحى . وقد كان فان الحال اشتد به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمى نفسه منها حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى وهى اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خالقه فيتبدى له الملك قائلا . أنت رسول الله حقا فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحى .

عود الوحى

فبينما هو يمشى إذ سمع صوتاً من السماء فرفع إليه بصره فاذا الملك الذى جاءه بحراء جالس بين السماء والأرض فرعب منه اتذكر مافعله

فى المرة الأولى فرجع وقال : دثروني دثرونى . فأنزل الله تعالى عليه (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) خصه بالتعظيم ولا تشرك معه فى ذلك غيره (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) لتكون مستعداً للوقوف بين يدى الله إذ لايليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) أى اهجر أسباب الرجز وهو العذاب بأن تطيع الله وتنفذ أمره (وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثر مما وهبت فهذا ليس من شأن الكرام (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله.

الدعوة سراً

فقام عليه السلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جفاة لا دين لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لاتنفع ولا تضر ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطا بالعزة والأنفة وهو الذى كثيراً ما كان سبباً فى الغارات والحروب وإهراق الدماء فجاءهم رسول الله بما لايعرفونه فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته ، وكان أول من سطع عليه نور الاسلام خديجة بنت خويلد زوجه وعلي بن أبى طالب ابن عمه وكان مقيما عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة وكان أبوطالب

مقلا كثير الأولاد فقال عليه السلام لعمه العباس بن عبد المطلب : إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله تأخذ واحداً وأنا واحداً ، فانطلقا وعرضا عليه الأمر فأخذ العباس جعفر بن أبى طالب وأخذ عليه السلام علياً فكان فى كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز الاحتلام فكان تابعاً للنبي فى كل أعماله ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع الهوى ، وأجاب أيضاً زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى مولاه عليه السلام وكان يقال له زيد بن محمد لأنه لما اشتراه أعتقه وتبناه وكان المتبنى معتبراً كابن حقيقى يرث ويورث ، وأجابت أيضاً أم أيمن حاضنته التى زوجها لمولاه زيد . وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبى قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبا فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق وقال : بأبى أنت وأمى أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . كان رضى الله عنه صدراً معظماً فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق وكان من أعف الناس سخياً يبذل المال محبباً فى قومه حسن المجالسة ولذلك كله كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير فكان يستشيره فى أموره كلها وقال فى حقه : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر) وكانت الدعوة إلى الاسلام سراً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم فكان

عليه السلام لايدعو إلا من يثق به . ودعا أبو بكر إلى الاسلام من يثق به من رجال قريش فأجابه جمع (منهم) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشي ، ولما علم عمه الحكم باسلامه أوثقه كتافاً وقال : ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث ! ! ! والله لاأحلك حتى تدع ماأنت عليه ، فقال عثمان : والله لاأدعه ولاأفارقه . فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره (ومنهم) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشي وأمه صفية بنت عبد المطلب وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه فقوّاه الله بالثبات وكان شابا لايتجاوز سن الاحتلام (ومنهم) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب الزهرىّ القرشىّ وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو فسماه عليه السلام عبد الرحمن (ومنهم) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشي . ولما علمت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بإسلامه قالت له: ياسعد بلغنى أنك قد صبأت؛ فوالله لايظلنى سقف من الحر والبرد وأن الطعام والشراب علىّ حرام حتى تكفر بمحمد. وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه أمر أمه فنزل فى ذلك تعليما قول الله تعالى فى سورة العنكبوت (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وصاه جل ذكره بوالديه وأمره بالاحسان اليهما مؤمنين كانا أو كافرين ، أما اذا

دعواه للاشراك فالمعصية متحتمة لأن كل حق وان عظم سافط هنا فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ثم قال الى مرجعكم من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم . وفى ختام هذه الآية فائدتان التنبيه على أن الجزاء إلى الله فلا تحدث نفسك بجفوتهما لاشراكهما، والحض على الثبات فى الدين لئلا ينال شر جزاء فى الأخرى . (ومنهم) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته فلما دعاه أبوبكر وسمع من رسول الله مانفعه الله به ورأى الدين متينا بعيدا عما عليه العرب من المثالب بادر إلى الاسلام (وممن) سبقوا إلى الاسلام صهيب الرومى وكان من الموالى وعمار بن ياسر العنسى وقد قال رضى الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه الا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر ، وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سمية . (ومن) السابقين الأولين عبد الله بن مسعود كان يرعى الغنم لبعض مشركى قريش فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو اليه عليه السلام من مكارم الاخلاق ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله وكان رضى الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يحجب ويمشى أمامه ويستره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام ويلبسه نعليه اذا قام ، فاذا جلس أدخلهما فى ذراعيه.
(ومن) السابقين الأولين أبو ذر الغفارى وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ولما بلغه مبعث رسول الله قال لأخيه : اركب الى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتنى ، فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ثم

رجع الى أبي ذر فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ماهو بالشعر، فقال ماشفيتني مما أردت. فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله حتى اذا أدركه الليل رآه عليّ فعرف أنه غريب فأضافه عنده ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث) فلما أصبح احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى فعاد الى مضجعه فمر به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله الذى أضيف به بالأمس، فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى اذا كان اليوم الثالث عاد على مثل ذلك ثم قال له على: ألا تحدثنى ما الذى أقدمك؟ قال: ان أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدنى فعلت، ففعل فأخبره قال: فانه حق وهو رسول الله فاذا أصبحت فاتبعنى فانى ان رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأنى أريق الماء فان مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى ففعل فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي: ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى، قال: والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه وقال: ويلكم أولستم تعلمون أنه من غفار؟ وان طريق

تجارتكم الى الشام عليه ! فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكب العباس عليه (رواه البخارى) . كان رضى الله عنه من أصدق الناس قولا وأزهدهم فى الدنيا (ومن) السابقين سعيد بن زيد العدوى القرشى وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سلمة بن عبدالله بن عبدالأسد المخزومى القرشى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه أم سلمة وعثمان بن مظعون الجمحى القرشى وأخواه قدامة وعبدالله والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى القرشى؛ (ومن) السابقين الأولين خالد بن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس الأموى القرشى : كان أبوه سيد قريش اذا اعتمّ لم يعتم قرشى إجلالا له، وكان خالد بن سعيد قد رأى فى منامه أنه سيقع فى هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء اليه وقال : إلامَ تدعو يامحمد ؟ قال : أدعوك الى عبادة الله وحده لاشريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان إلى والديك وأن لاتقتل ولدك خشية الفقر وأن لاتقرب الفاحشة ماظهر منها ومابطن وأن لاتقتل نفساً حرم الله قتلها الا بالحق وأن لاتقرب مال اليتيم إلابالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأن توفى الكيل والميزان بالقسط وأن تعدل فى قولك ولو حكمت على ذوى قرباك وأن توفى لمن عاهدت، فأسلم رضى الله عنه وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت فانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه

فى ضواحى مكة وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد . وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى دين الاسلام ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين وليس معه مايرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوى الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه السلام كأبى بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتبعوه من الموالى اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع أتباع الرسول بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا فى هذه الدنيا أهدأ بالا وأنعم عيشة ، اللهم ليس ذلك الا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم حتى أدركوا ماهم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى .

الجهر بالتبليغ

مضت كل هذه المدة والنبى عليه السلام لايظهر الدعوة فى مجامع قريش العمومية ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلى مستخفياً، ولما دخل فى الدين مايربو على الثلاثين وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم اختار لذلك دار الأرقم بن أبى الأرقم — وهو ممن ذكرنا إسلامهم — ومكث عليه السلام يدعو سراً حتى نزل عليه قوله تعالى فى سورة الحجر (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ممتثلا أمر ربه واثقاً بوعده ونصره فصعد على الصفا فجعل ينادى: يابنى فهر يابنى عدى لبطون قريش ، فجعل

الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر فجاء أبو لهب ابن عبد المطلب وقريشاً فقال عليه السلام : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذباً ، قال: فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فى شأنه (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ) والقصد من حمل الحطب المشى بالنميمة لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب فى نوادى النساء . ثم نزل عليه فى سورة الشعراء (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاقْرَبِينَ) وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف (واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ) أى العشيرة والأقربون (فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) فجمعهم عليه السلام وقال لهم إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وانها لجنة أبداً أو لنار أبداً . فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبى لهب. الذى كان خصما لدوداً فانه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب فان سلمتوه إذاً ذللتم وإن منعتموه قتلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع .

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش واستهزؤا به فى مجالسهم فكان إذا مر عليهم يقولون : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء لا يزيدون على ذلك، فلما عاب آلهتهم وسفه عقولهم وقال لهم والله ياقوم لقد خالفتم دين أبيكم ابراهيم ثارت فى رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم فذهبوا إلى عمه أبى طالب سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه أو يكفه عما يقول، فردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله لما يريده لا يصده عن مراده شىء فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحث بعضهم بعضاً على ذلك، ثم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى وقالوا له: إن لك سنا وشرفاً ومنزلة منا وانا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا . فانهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له قال تعالى فى سورة البقرة (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وقال فى سورة المائدة (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وقال فى سورة لقمان (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ

يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) وقال فى سورة الزخرف فى بيان حجتهم الداحضة (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال : (قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك الى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية فهاج ذلك أضغانهم وقالوا لأبى طالب إما أن تكفه أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا فعظم على أبى طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخى إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا فأبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، فظن الرسول أن عمه خاذله فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ؛ ثم بكى وولى . فقال أبو طالب أقبل يا ابن أخى فأقبل عليه فقال اذهب فقل ما أحببت والله لا أسلمك.

الايذاء

ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة خصوصا اذا ذهب الى الصلاة عند البيت ،وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين (فأولهم) وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام ابن المغيرة المخزومى القرشى قال يوما يامعشر قريش ان محمداً قد أتى ماترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم إنى أعاهد

الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله فاذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صلاته وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجدعليه السلام احتمل أبوجهل الحجر وأقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده. فقام اليه رجال من قريش فقالوا امالك ياأبا الحكم؟ قال قمت اليه لأفعل ماقلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الابل والله مارأيت مثله قط هم بىأن يأكلنى! فلما ذكر ذلك لرسول الله قال ذاك جبريل ولودنا لأخذه . وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسول عن صلاته فى البيت فقال له مرة بعد أن رآه يصلى ألم أنهك عن هذا فأغلظ له رسول الله القول وهدده فقال أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا فأنزل الله تهديدا له فى آخر سورة اقرأ (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) ومن أذيته للرسول ما حكاه عبدالله بن مسعود من رواية البخارى قال كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبوجهل : ألا رجل يقوم الى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو ابن أمية بن عبدشمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه السلام ساجداً حتى جاءت فاطمة

بنته فأخذت القذر ورمته. فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال: اللهم عليك الملأ من قريش وسمى أقواماً، قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر . ومما حصل لرسول الله مع أبى جهل أن هذا ابتاع اجمالا من رجل يقال له الاراشى فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله فدلوه على رسول الله لينصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقى بالرسول فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على أبى جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا؟ قال محمد فخرج منتقعا لونه فقال له الرسول : أعط هـذا حقه ، فقال أبو جهل لاتبرح حتى تأخذه فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ماصنعت! قال ويلكم والله ما هو الا أن ضرب على بابى حتى سمعت صوتا ملئت منه رعبا وان فوق رأسى فحلا من الابل ما رأيت مثله . (ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله كان أشد عليه من الأباعد فكان يرمى القذر على بابه لأنه كان جارا له فكان الرسول يطرحه ويقول: يابنى عبدمناف أى جوار هذا؟ وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيرا ماتسب رسول الله وتتكلم فيه بالنمائم وخصوصا بعد أن نزل فيها وفى زوجها سورة أبى لهب. (ومن المستهزئين) عقبة بن أبى معيط كان الجار الثانى لرسول الله وكان يعمل معه كأبى لهب صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال عليه السلام والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد فبلغ ذلك أبىّ بن خلف الجمحى القرشى وكان صديقاً له فقال : ماشىء بلغنى

عنك قال لاشيء دخل منزلى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له. قال أبيّ: وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق فى وجهه وتلطم عينه فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه فى سورة الفرقان (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فلاناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً) ومن أشد ماصنعه ذلك الشقى برسول الله مارواه البخارى فى صحيحه قال: بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة ابن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال. (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) ومن جماعة المستهزئين العاصى بن وائل السهمى القرشى والد عمرو بن العاص كان شديد العداوة لرسول الله وكان يقول: غر محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت والله مايهلكنا إلا الدهر، فقال الله رداً عليه فى دعواه فى سورة الجاثية: (وَقَالُوا مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وما لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) . وكان عليه دين لخباب بن الأرت أحد رجال المسلمين فتقاضاه اياه فقال العاصى: أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة مايبتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب او خدم؟ قال خباب: بلى؛ قال: فأنظرنى الى هذا اليوم فسأوتى مالا وولداً وأقضيك دينك، فأنزل الله فيه فى سورة مريم: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ

بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) . ومن جماعة المستهزئين الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي من بني زهرة أخوال رسول الله كان اذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين ثيابهم رثة وعيشهم خشن وكان يقول لرسول الله سخرية: أما كلمت اليوم من السماء (ومنهم) الأسود بن عبد المطلب الأسدى ابن عم خديجة كان هو وشيعته اذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل في سورة التطفيف (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ) .ومنهم الوليد بن المغيرة عم أبي جهل كان من عظماء قريش وفي سعة من العيش سمع القرآن مرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقومه بني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو وما يعلى ، فقالت قريش صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها ،فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فتوجه وقعد اليه حزيناً وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ! وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا؛ثم قالوا فما

هو ؟ ففكر قليلا ثم قال : ماهو الا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فارتج النادى فرحاً فأنزل الله فى شأن الوليد فى سورة المدثر مخاطباً لرسوله (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَـذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرْ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) وأنزل فيه أيضاً فى سورة ن (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ) كثير الحلف وكفى بهذا زاجرا لمن اعتاد الحلف (مَهِينٍ) حقير، وأراد به الكذاب لأنه حقير فى نفسه (هَمَّازٍ) عياب طعان (مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) ينقل الأحاديث للافساد بين الناس (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ) غليظ جاف (بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) دخيل (إِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) كناية عن الاذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف مافيه ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل على العظمة كالأنفة وهى الحمية فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة. (ومن) المستهزئين النضر ابن الحارث العبدرى من بنى عبد الدار بن قصى كان اذا جلس رسول الله مجلسا للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر هلموا يامعشر قريش فانى أحسن منه حديثا ثم يحدث عن ملوك فارس وكان يعلم أحاديثهم

ويقول ما أحاديث محمد الا أساطير الأولين وفيه نزل فى سورة لقمان (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى فى التنزيل فى سورة الحجر (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وقد وضع الله جل ذكره الوعد فى صورة الماضى للتحقق من وقوعه لأن الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة فنهم من قتل كأبى جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبى لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة.

إسلام حمزة

وكان بعض إيذائهم هذا سببا لاسلام عمه حمزة بن عبد المطلب فقد أدركته الحمية عند ماعيرته بعض الجوارى بايذاء أبى جهل لابن أخيه فتوجه الى ذلك الشقى وغاضبه وسبه وقال كيف تسب محمداً وأنا على دينه، ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً وأشدهم غيرة على المسلمين وأقوامهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمى أسد الله.

وكما أوذى الرسول عليه الصلاة والسلام أوذى أصحابه لاتباعهم له خصوصا من ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلوا فى أعينهم مادام فيه رضا الله فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله.

حتى أتم أمره على أيديهم وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها كما قال جل ذكره فى سورة القصص (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) وقد حقق ما أراد (ومن) الذين أوذوا فى الله بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحى القرشى فكان يجعل فى عنقه حبلا ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله. وكان أمية يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرمضاء وهى الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول أحد أحد . مر به أبو بكر يوماً فقال يا أمية أما تتقى الله فى هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، فاشتراه منه وأعتقه فأنزل الله فيه وفى أمية فى سورة الليل (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى) أمية بن خلف (الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْاتْقَى) الصديق (الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِاحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى) بما يعطيه الله فى الاخرى جزاء أعماله . وقد نبه الله جل ذكره على أن بذل الصديق ماله فى شراء بلال وعتقه لم يكن الا ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا شرفاً وفضلا للصديق رضى الله عنه وأرضاه . وقد أعتق غير بلال جماعة من الارقاء أسلموا فعابهم مواليهم (ومنهم) حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف

(ومنهم) امرأة تسمى زنيرة عذبت فى الله حتى عميت فلم يزدها ذلك الا إيمانا وكان أبو جهل يقول ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لوكان ماأتى به محمد خيراً ماسبقونا اليه أفتسبقنا زنيرة الى رشد فأنزل الله فى سورة الأحقاف (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) (وممن) أعتق أبو بكر بعد شرائه أم عنيس كانت أمة لبنى زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث (وممن) عذب فى الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت. أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فان أبا جهل كان يجعل له دروعا من الحديد فى اليوم الصائف ويلبسه إياها فقال المسلمون : كفر عمار ، فقال عليه السلام : عمار ملىء إيمانا من فرقه الى قدمه وأنزل الله فى شأنه استثناء فى حكم المرتد فقال جل ذكره فى سورة النحل : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . (وممن أوذى فى الله) خباب بن الأرت سبى فى الجاهلية فاشترته أم أنمار وكان حداداً وكان النبى يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيمانا ، وجاء خباب مرة الى رسول الله وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة فقال يارسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه السلام محمراً وجهه فقال : انه كان من قبلكم ليمشط أحدهم

بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق مايصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت [1] لايخاف إلا الله والذئب على غنمه. قال ذلك عليه السلام وهو فى هذه الحال الشديدة التى لايتصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة اللهم الا أن ذلك وحى يوحى اليه. ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين أول سورة العنكبوت (الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ). (وممن أوذى فى الله) أبو بكر الصديق ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة الى جهة الحبشة فخرج حتى أتى برك الغماد فلقيه ابن الدغنة وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى. فقال ابن الدغنة: مثلك يا أبا بكر لايخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه وطاف فى أشراف قريش، فقال لهم: أبو بكر لايخرج مثله. أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره

---

(١) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر، وقيل موضع فى أقصى اراضى هجر اه من ياقوت

فليعمل فيها ماشاء وليقرأ ماشاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فلبث بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه، وكان رجلاً بكاء لايملك عينيه اذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : انا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل ، وان أبى الا أن يعلن ذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان . فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذى عاقدت لك عليه فاما أن تقصر على ذلك وإما أن ترجع الىّ ذمتى فانى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له. فقال أبو بكر فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (رواه البخارى) وكان ذلك سبباً لايصال أذى عظيم الى أبى بكر رضى الله عنه. وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذية لحقته ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم فانهم لم يسلموا لغرض دنيوى يرجون حصوله فيسهل ارجاعهم ولكن وفقهم الله لادراك حقيقة الايمان فرأوا كل شيء دونه سهلاً .

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعاً بل كلما زادوا

المسلمين أذى ازداد يقينهم اجتمعوا للشورى فيما بينهم فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمى من بنى عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مطاعاً فى قومه: يامعشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً عله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ،فقالوا يا أبا الوليد قم اليه فكلمه . فذهب الى رسول الله وهو يصلى فى المسجد ، وقال : يا ابن أخى انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها: فقال عليه الصلاة والسلام ،قل يا أبا الوليد اسمع .

فقال يا ابن أخى ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن لاتستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطلب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم ، قال فاسمع منى فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ

أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ. قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه فقال: والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يامعشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ فان تصبه

العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فعزه عزكم فقالوا لقد سحرك محمد فقال هذا رأيي ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته فأنزل الله في ذلك (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) فلا تتوهموا اني أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد فيأتي بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله جوابا لهم في سورة يونس (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به وهو أنه بينما الرسول عليه السلام مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين إذ أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى وهو ممن أسلموا قديماً والنبي مشتغل بالقوم وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم فقال له عبد الله يارسول الله علمني مما علمك الله وأكثر عليه القول فشق ذلك على الرسول وكره قطعه لكلامه وخاف عليه السلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الاشراف فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) فما عبس رسول الله صلى الله عليه

وسلم بعدها فى وجه فقير وكان اذا أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم يقول له مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا فى باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات فاجتمعوا وقالوا يامحمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك وهى أن تشق لنا القمر فرقتين فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله إشهدوا، وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة ورواها عبدالله بن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر وقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى أول سورة القمر (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم لقد سحركم ابن أبي كبشة فانزل الله فيهم (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد فمنها أن قالوا كما فى سورة الاسراء (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ) ولم يجبهم الله إلا بقوله (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) لأن الله علم ماتكنه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات

كما قال جل ذكره فى سورة الأنعام (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) وكيف يرجى الخير ممن قالوا كما فى سورة الأنفال (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه. وهذه سنة من سُنن الأنبياء اذا رأوا من طلاب الآيات عناداً وإنهم يطلبونها تعجيزاً لايسألون الله انفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم وهذا هو المراد من قوله تعالى فى سورة الأسراء (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) وقد حصل للمسيح عليه السلام أنه لما وقف أمام هيردوس طلب منه آية فلم يجبه الى طلبه فلما رأى ذلك سخر منه ورده الى عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه وذلك مذكور فى الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل لوقا. (هذا) ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحولوا الى سياسة القوة التى اختارها قوم ابراهيم عند ماعجزوا عنه حيث قالوا (حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ) كما فى سورة الأنبياء أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه السلام ولم يتركوا باباً الا ولجوه فقال عليه السلام لأصحابه تفرقوا فى الأرض فان الله سيجمعكم فسألوه عن الوجه فاشار الى الحبشة

هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم كما

أشار عليه السلام وهذه هى أول هجرة من مكة وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة وهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وأبو سلمة وزوجه أم سلمة وأخوه لامه أبو سبرة بن أبى رهم وزوجه أم كلثوم وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير وسهل بن البيضاء والزبير بن العوام وجلهم من قريش وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون فساروا على بركة الله ولما انتهوا الى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم الى مقصدهم فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين ولم يبق مع النبى عليه السلام الا القليل

إسلام عمر

وفى ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب العدوى القرشى بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم، قالت ليلى احدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى إسلامنا فلما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه الى أرض الحبشة اذا أنا به فقال لى الى أين ياأم عبد الله؟ فقلت قد آذيتمونا فى ديننا نذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى، فقال صحبكم الله فلما جاء زوجى عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال ترجين أن يسلم والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم فانه قال قبيل إسلامه اللهم أعز الاسلام بعمر

وكان إسلامه فى دار الارقم ابن أبى الارقم التى كان المسلمون يجتمعون فيها وقد حقق الله باسلامه مارجاه عليه السلام فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخارى (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر) فانه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته فى المسجد ففعل وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل السهمى وهو من بنى سهم حلفاء بنى عدى قوم عمر وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير فقال لعمر ما بالك فقال زعم قومك انهم سيقتلوننى أن أسلمت قال لاسبيل اليك فأنا لك جار، فأمن عمر وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادى فقال أين تريدون ؟ قالوا نريد هذا ابن الخطاب الذى صبأ قال لاسبيل اليه .فرجع الناس من حيث أتوا

رجوع مهاجرى الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجرى الحبشة رجعوا الى مكة حيث لاتتيسر لهم الاقامة فيها لانهم قليلو العدد وفى الكثرة بعض الأنس وأضعف الى ذلك انهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم وهؤلاء لايطيب لهم عيش فى دار غربة بهذه الحالة .

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سببا فى رجوع مهاجرى الحبشة وهى انه بلغهم اسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم وتكلم فيها كلاما حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمُنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأخْرَى) تلك الغرانيق (جمع غرنوق وهى الطيور ويرادبها

الملائكة) العلى وان شفاعتهن لترتجى ، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحا ، وهذا مما لاتجوز روايته الا على قليلى الادراك الذين ينقلون كل ماوجدوه غير متثبتين من صحته وهانحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ماذكر أما الحديث فسنده ومتنه قلقان فالسند قال فيه القاضى عياض فى الشفاء لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولارواه ثقة بسند سليم ، وأما المتن فليس اصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحا أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم فبعد ذكر الاصنام قال (إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) فالكلام غير منتظم ولو كان ذلك قد حصل لا تخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة فكيف بهذه وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة الى الكعبة وهذا قالوا فيه ماقالوا حتى سماهم الله سفهاء وأنزل فيهم فى سورة البقرة (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَاوَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا) ولكن لم يسمع عن أى واحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم ان قال مالك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مهج الرجال.

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجرى الحبشة يقولون أثناء كلامهم ان الهجرة كانت فى رجب والرجوع كان فى شوال ونزول سورة النجم كان فى رمضان فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لايكفى فى ذلك الزمن للذهاب من مكة الى الحبشة والاياب منها لانه لم

يكن اذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير فى البحر ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة فلا غرابة بعد ذلك أن قلنا ان هذه الخرافة من موضوعات أهل الاهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ولكن الحمد لله فقد من علينا بحفظ كتابنا المجيد الذى يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب. ففى السورة نفسها (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) والذى يلقيه الشيطان من أقبح مايروى فكيف يقوله عليه السلام أو يجرى على لسانه مما يثبت الشكوى فى الوحى ؟ الأمر الذى يريده السفهاء رد الله كيدهم فى نحرهم. والذى ورد فى الصحيح فى موضوع هذا السجود مارواه عبد الله بن مسعود أن النبي عليه السلام قرأ والنجم فسجد وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه على جبهته وقال يكفينى هذا، فرأيته قتل بعد كافراً، وليس فى هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون بل الذى يفيده قوله فرأيته قتل بعد كافراً أنه كان مسلماً ثم رأيته ارتد وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا منهم على بن أمية بن خلف .(هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة الى مكة لم يتمكن من الدخول اليها إلا من وجد له مجيراً فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبي طالب ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة وقد رد عليه جواره حينما رأى ماصنعه بالمسلمين فلم ير أن يكون مرتاحاً وإخوانه يعذبون .

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بنى عبد مناف الذين منهم الرسول عليه السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك ، ثم عرضوا على أبى طالب أن يعطوه سيداً من شبانهم يتبناه ويسلم اليهم ابن أخيه فقال : عجباً لكم تعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب ولدىْ عبدمناف وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك فى شعب أبى طالب ودخل معهم بنو المطلب سواء فى ذلك مسلمهم وكافرهم ماعدا أبا لهب فانه كان مع قريش وانخزل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابنى عبد مناف فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفى مقدمة المانعين أبو لهب .

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقومه الشعبَ أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمانى عشرة امرأة وكان من الرجال جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس والمقداد بن الأسود وعبدالله بن مسعود وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان وتوجه لهم الذين أسلموا

من جهة اليمن وهم الأشعريون أبو موسى وبنو عمه . ولما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشى ليسلم المسلمين فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشى إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته فى قوم لاذوا به ، أما بنو هاشم فمكثوا فى الشعب قريباً من ثلاث سنوات فى شدة الجهد والبلاء لايصلهم شىء من الطعام إلا خفية.

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة وهم هشام بن عمرو بن الحارث العامرى وهو أعظمهم فى ذلك بلاء وزهير بن أبى أمية المخزومى ابن عمة الرسول عاتكة والمطعم بن عدى النوفلى وأبو البخترى ابن هشام الأسدى وزمعة بن الأسود الأسدى واتفقوا على ذلك ليلاً فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال : ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم والمطلب هلكى لايبيعون ولا يبتاعون ! والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمةالقاطعة . فقال أبوجهل : كذبت ، فقال زمعة لأبى جهل : أنت والله أكذب! مارضينا كتابتها حين كتبت ، فقال أبو البخترى : صدق زمعة ، وقال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك. وصدق على ماقيل هشام ابن عمرو فقام اليها المطعم بن عدى فشقها وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا مافيه اسم الله وقدأخبر النبى عليه السلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ماذكر فخرج القوم الى مساكنهم بعد هذه الشدة.

وفود نجران

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ماذكر منها فى كتبهم وكانوا عشرين رجلا أو قريباً من ذلك فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل : مارأينا ركباً أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم ! فقالوا سلام عليكم لانجاهلكم ، لكم ماأنتم عليه ولنا مااخترناه فأنزل الله فى ذلك فى سورة القصص (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) .

وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة وبالكذب أخرى وبالجنون طوراً وبالكهانة تارة كل ذلك شأن العاجز المعاند الذى لايستحى لمزيد عناده أن يقول : (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

وفاة خديجة رضى الله عنها

وبعد خروجه عليه السلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضى الله عنها كان عليه السلام كثيراً مايذكرها ويترحم عليها ، ولا غرابة فهى أول نفس زكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه وقد جاء منها بأولاده كلهم ماعدا إبراهيم فمنها زينب وهى أكبر بناته تزوجها فى الجاهلية أبو العاص بن الربيع وأعقب منها أمامة التى تزوجها على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة ، ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها الى الحبشة والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها ومنها فاطمة وهى أصغر بناته تزوجها على بن أبى طالب وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلا . ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه فى عشيرتها بنى أسد ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر.

زواج سودة

وعقد عليه السلام فى الشهر الذى ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن توفى عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو ، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبنى عمها وهاجرت مع

زوجها الى الحبشة فى المرة الثانية خوف الفتنة وعقب رجوعه من هجرته توفى عنها فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به ولو تركت لقومها مع ماهم عليه من الغلظة وكراهة الاسلام لفتنوها وكرم نسبها فى قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسباً وشرفاً .

زواج عائشة رضى الله عنها

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهى لاتتجاوز السابعة من عمرها ولم يتزوج عليه السلام بكراً غيرها ودخل عليها بالمدينة أما سودة فدخل عليها بمكة .

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفى عمه أبو طالب الذى كان يمنعه من أذى أعدائه ومع أنه كان لايكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته وفيه نزل فى سورة القصص (إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) . ولكن لأعماله العظيمة التى عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه . وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة مالا يخفى فانهم لو بادروا باتباعه لقيل قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسألهم فجاءوا بهذا الأمر المفترى ، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته بل من أعدائها أحياناً كعثمان ابن عفان من بنى أمية لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التى كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم ساحر يفرق بين

المرء وزوجه وكاهن يتكهن بالغيب ، وقد سمى رسول الله هذا العام الذى فقد فيه زوجه وعمه عام الحزن . ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله مالم يمكنها نيله فى حياة أبى طالب واشتد الأمر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر ويضعون أوساخ الشاة عليه فى صلاته وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف إلا أبو بكر فانه تقدم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟! .

هجرة الطائف

فلما رأى عليه السلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف[1] يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتم أمر ربه لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خؤولة فان أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بنى سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف فلما توجه اليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة عبديا ليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير الثقفى فعرض عليهم نصرته حتى يؤدى دعوته فردوا عليه رداً قبيحاً ولم ير منهم خيراً ،وحينذاك طلب منهم أن لايشيعوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم لأنه استعان عليهم بأعدائهم فلم تفعل ثقيف. مارجاه منهم عليه السلام بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون فى وجهه فى الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه.وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه.

---

(١) بلد فى الجنوب الشرقى من مكة

الى أن انتهى الى شجرة كرم واستظل بها وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة إبنى ربيعة وهما من أعدائه وكانا فى البستان فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلا (اللهم إنى أشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تكانى ان لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالى) فلما رآه ابنا ربيعة رقاله وأرسلا اليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصرانى اسمه عداس فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قال (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال عداس هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له عليه السلام من أى البلاد أنت وما دينك ؟ فقال نصرانى من نينوى [1] فقال له عليه السلام من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى قال وما علمك بيونس فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس فلما سمع ذلك عداس أسلم ، وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال إن الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك فقال عليه السلام (اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون) فقال جبريل صدق من سماك الرءوف الرحيم . ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن وهم ممن ينتمون الى موسى صلوات الله عليه فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا الى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله وفيهم نزل فى سورة الأحقاف (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى

(١) بلد على شاطىء دجلة وهى آخر ماينتهى اليه العراق وأمامها مدينة الموصل

إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول فى سورة سميت باسمهم أولها (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

الاحتماء بالمطعم بن عدى

ولما رجع عليه السلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم فأرسل عليه السلام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة فى جواره فأجاب الى ذلك وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله الى المطاف فقال له بعض المشركين : أمجير أنت أم تابع ؟ فقال بل مجير، قالوا اذاً لا تخفر ذمتك .

وفد دوس

وقدم على رسول الله وهو بمكة الطفيل بن عمرو الدوسى من قبيلة دوس عشيرة أبى هريرة الصحابى الشهير وكان الطفيل شريفاً فى قومه شاعراً نبيلا فلما قرأ عليه القرآن أسلم فقال له رسول الله إذهب الى قومك

فادعهم الى الاسلام ودعالهم رسول الله فقال : اللهم اهد دوسا، فتوجه اليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم .وستأتى وفادته على الرسول مرة ثانية بقومه فى المدينة

الاسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالاسراء والمعراج ، أما الاسراء فهو توجهه ليلاً الى بيت المقدس بايلياء ورجوعه من ليلته،وأما المعراج فهو صعوده الى العالم العلوى،وقد قال جمهور أهل السنة إن ذلك كان بجسمه الشريف وكانت عائشة رضى الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه وتقول من قال إن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله . والاسراء مذكور فى القرآن الكريم قال تعالى فى أول سورة الاسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). وأما المعراج فقد ورد فى صحيح السنة وأصح أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضى عياض فى شفائه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا بآدم فرحب بى

ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت
قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه
ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى بن مريم فرحبا بى ودعوا لى بخير
ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا واذا أنا بيوسف
واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء
الرابعة فذكر مثله فاذا أنا بادريس فرحب بى ودعا لى بخير قال تعالى
فى سورة مريم (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) ثم عرج بنا الى السماء الخامسة
فذكر مثله فاذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء
السادسة فذكر مثله فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا
الى السماء السابعة فذكر مثله فاذا أنا بابراهيم مسندا ظهره الى البيت
المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب
بى الى سدرة المنتهى فاذا أوراقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها
من أمر ربى ماغشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها
فأوحى الله الى ما أوحى ففرض على وعلى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم
وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة
قال ارجع الى ربك فسله التخفيف فان أمتك لا يطيقون ذلك فانى قد
بلوت بنى اسرائيل قبلك وخبرتهم قال فرجعت الى ربى وقلت له يا ربى خفف
عن أمتى فحط عنى خمساً فرجعت الى موسى فقلت حط عنى خمسا قال ان
أمتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فسله التخفيف قال فلم أزل أرجع
بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه يا محمد إنهن خمس صلوات كل

يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشرا ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئا ومن هم بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فسله التخفيف فقلت قد رجعت الى ربى حتى استحييت منه . ثم رجع عليه السلام من ليلته فلما أصبح غدا الى نادى قريش فجاء اليه أبو جهل بن هشام فحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى له فقال أبو جهل يا بنى كعب بن لؤى هلموا فأقبل عليه كفار قريش فأخبرهم الرسول الخبر فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب وسعى رجال الى أبى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال انى لأصدقه على أبعد من ذلك فسمى من ذلك اليوم صدّيقا ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم بابا بابا وموضعا موضعا فقالوا أما النعت فقد أصاب فأخبرنا عن عيرنا وكانت لهم عير قادمة من الشام فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً حتى قالوا هذا سحر مبين وفى صبيحة ليلة الاسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها فيصلى ركعتين اذا ظهر الفجر وأربع ركعات اذا زالت الشمس

ومثلها اذا ضوعف ظل الشيء وثلاثا اذا غربت وأربعا اذا غاب الشفق الأحمر. وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحاً ومثلهما مساء كما كان يفعل ابراهيم عليه السلام.

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجد من قريش منعة من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدى غيرهم من العرب فكان عليه السلام يخرج فى المواسم العربية (وهى أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدى رسالة ربه فكان بعضهم يرد رداً جميلا وآخرون رداً قبيحاً. وكان من أقبح القبائل رداً بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب وطلب منه بنو عامر إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده فقال لهم الأمر لله يضعه حيث يشاء وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب وهى مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان إحداهما من ولد الأوس والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لاتضع أوزارها بين الفريقين فكانوا دائماً فى شقاق ونزاع وكان يجاورهم فى المدينة أقوام من اليهود وهم بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير وكان لهم الغلبة على يثرب أولا فحاربهم العرب حتى صاروا ذوى النفوذ فيها والقوة وكان اليهود اذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يبعث قد قرب زمانه. ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم

وشقت عصا الألفة حالفوا اليهود على أنفسهم لحالف الأوس بنى قريظة وحالف الخزرج بنى النضير وبنى قينقاع وآخر الأيام بينهم يوم بعاث قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق إلا عبدالله بن أبيّ بن سلول من الخزرج وأبو عامر الرهب من الأوس ولذلك كانت عائشة تقول كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشا على الخزرج فأرسلوا إياس بن معاذ وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف فى قريش فلما جاءوا مكة جاءهم رسول الله وقال هل لكم فى خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا وقد أرسلنى الله الى الناس كافة ثم تلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ يا قوم هذا والله خير مما جئناله، فحصبه أبو الحيسر وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا فسكت.

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث من بنى النجار ورافع بن مالك من بنى زريق وقطبة بن عامر من بنى سلمة وعقبة بن عامر من بنى حرام وجابر بن عبد الله من بنى عبيد بن عدى ودعاهم الى الاسلام وإلى معاونته فى تبليغ رسالة ربه فقال بعضهم لبعض انه للنبى الذى كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه ، فآمنوا به وصدقوه وقالوا إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل. وهذا هو بدء الاسلام لعرب يثرب .

العقبة الأولى

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلا منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا الحارث ورافع ابن مالك وذكوان بن قيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس ابن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر وهؤلاء من الخزرج وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة وهما من الأوس فاجتمعوا به عند العقبة وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه فى معروف فان وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئا فأمرهم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب ، وهذه هى العقبة الأولى . فأرسل لهم عليه السلام مصعب بن عمير العبدرى وعبد الله بن أم مكتوم وهو ابن خالة خديجة يقرآنهم القرآن ويفقهانهم فى الدين ونزل مصعب على أحد المبايعين أبى أمامة أسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للاسلام. وبينما هو فى بستان مع أسعد بن زرارة إذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس لأسيد بن حضير ابن عم سعد ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما فقام لهما أسيد بحربته فلما رآه أسعد قال لمصعب هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه. فلما وقف عليهما قال ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا ان كان لكما بأنفسكما

حاجة فقال مصعب أو تجلس فتسمع فان رضيت أمراً قبلته وإن كرهته فكففنا عنك ما تكره فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الإسلام وهداه الله له فتشهد ورجع إلى سعد فسأله عما فعل فقال : والله مارأيت بالرجلين بأسا فغضب سعد وقام لهما مغيظا ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للاسلام ورجع لرجال بنى عبد الأشهل وهم بطن من الأوس فقال لهم ماتعدوننى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا. قال كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه، وقد انتشر الاسلام فى دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الاسلام.

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج فى العام الذى يلى البيعة الأولى قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج وبينهم كثير من مشركيهم، ولما قابل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلا عند العقبة فأمرهم أن لا ينبهوا فى ذلك الوقت نائما ولا ينتظروا غائبا لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر فيسعوا فى نقض ما أبرم شأنهم مع رسول الله فى أول أمره . ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين وكان ذلك بعد مضى ثلث الليل الأول فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثاً وسبعين رجلا منهم اثنان وستون من الخزرج وأحد عشر من الأوس ومعهم امرأتان وهما نسيبة

بنت كعب من بنى النجار وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة ووافقهم رسول الله هناك وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون متوثقا له ،فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل فى منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحداً ممن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ثم قال لهم إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإلا فدعوه بين عشيرته فانهم لبمكان عظيم . فقال كبيرهم المتكلم عنه البراء بن معرور: والله لو كان لنا فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله ، وعند ذلك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ لنفسك ولربك ما أحببت . فقال : اشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم . فقال له الهيثم ابن التيهان : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال عهوداً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم عليه السلام ، وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم، أى إن طالبتم بدم طالبت به وإن أهدرتموه أهدرته.

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهى العقبة الثانية فبايعه الرجال على ما طلب وأول من بايع أسعد بن زرارة وقيل البراء ابن معرور ، ثم تخير منهم اثنى عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم أبو الهيثم بن التيهان وأسعد بن زرارة . وأسيد بن حضير . والبراء بن

معرور ورافع بن مالك وسعد بن أبى خيثمة وسعد بن الربيع وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت والمنذر ابن عمرو ثم قال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى ، ولأمر ماأراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركى قريش فجاءوا ودخلوا شعب الأنصار وقالوا: يامعشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا ؟ فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يحصل منهم شىء فى ليلتهم وعبدالله بن أبَىٍّ كبير الخزرج يقول : ما كان قومى ليفتاتوا علىّ بشىء من ذلك .

هجرة المسلمين الى المدينة

ولما رجع الأنصار الى المدينة ظهر بينهم الاسلام أكثر من المرة الأولى. أما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوما عليهم فأمر عليه السلام جميع المسلمين بالهجرة الى المدينة فصاروا يتسللون خيفة قريش ان تمنعهم .وأول من خرج أبو سلمة المخزومى زوج أم سلمة ومعه زوجه وكان قومها منعوها منه ولكنهم أطلقوها بعد فالحقت به ؛ وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بلحمهم ودمهم حتى صاروا لايعبؤون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم مادام فى ذلك رضى الله ورسوله . ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلى وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة، وقد أراد أبو بكر الهجرة

فقال له عليه السلام: على رسلك فانى أرجو أن يؤذن لى، فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعدادا لذلك .

دار الندوة

أما قريش فكانوا كأنهم أصيبوا بمس الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذود عنه حتى الموت فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه فقال قائل منهم نخرجه من أرضنا كى نستريح منه فرفض هذا الرأى لأنهم قالوا إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه ، وقال آخر نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت فرفض هذا الرأى كسابقه لأنهم قالوا إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخل فى دينه حيث يفضلونه على الآباء والأبناء فاذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه وربما جر هذا من الحرب علينا ما نحن فى غنى عنه. وقال لهم طاغيتهم بل نقتله، ولنمنع بنى أبيه من الأخذ بثأره نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً يجتمعون أمام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيفترق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يرضون بالدية، فأقروا هذا الرأى . هذا مكرهم ولكن إرادة الله فوق كل إرادة (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) فأعلم

نبيه بما دبره الأعداء فى سرهم وأمره باللحاق بدار هجرته بدار فيها ينشر الاسلام ويكون فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم العزة والمنعة . وهذا من الحكمة بمكان عظيم فانه لو انتشر الاسلام بمكة لقال المبغضون إن قريشاً أرادوا ملك العرب فعمدوا الى شخص منهم وأوعزوا اليه أنه يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ولكنهم كانوا له أعداء ألداء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم .

هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فتوجه من ساعته الى صديقه أبى بكر وأعلمه أن الله قد أذن له فى الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فقال نعم، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك فجهزاهما أحث الجهاز وصنعت لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر نطاقها وربطت به على فم الجراب واستأجرا عبدالله بن أريقط من بنى الديل ابن بكر وكان هادياً ماهراً وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال. ثم فارق الرسول عليه السلام أبا بكر وواعده المقابلة ليلا خارج مكة وكانت هذه الليلة هى ليلة استعداد قريش لتنفيذ ماأقروا عليه فاجتمعوا حول باب الدار ورسول الله داخله فلما جاء ميعاد الخروج أمر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه كى لايقع الشك فى وجوده أثناء الليل فانهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ثم سجى علياً ببردته وخرج على القوم وهو يقرأ (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ

لاَيُبْصِرُونَ) فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد، ولم يزل عليه السلام سائراً
حتى تقابل مع الصديق وساراحتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه . أما المشركون
فلما علموا بفساد مكرهم وأنهم انما باتوا يحرسون على بن أبى طالب لا محمد
ابن عبدالله هاجت عواطفهم فأرسلوا الطلب من كل جهة وجعلوا الجوائز
لمن يأتى بمحمد أو يدل عليه وقد وصلوا فى طلبهم الى ذلك الغار الذى فيه
طلبتهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر
فقال له عليه السلام (لاَتَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا) فأعمى الله أبصار المشركين حتى
لم يحن لأحد منهم التفاتة الى ذلك الغار بل صار أعدى الأعداء أمية بن
خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين فى مثل هذا الغار فأقاما فيه ثلاث ليال
حتى ينقطع الطلب وكان يبيت عندهم عبدالله بن أبى بكر وهو شاب ثقف
ولقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها فلا يسمع
أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان
عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من
العشاء ويغدو بها عليهما فاذا خرج من عندهما عبدالله تبع أثره عامر بالغنم
كيلا يظهر لقدميه أثر . ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل
بالراحلتين صبح ثلاث وسارا متبعين طريق الساحل ، وفى الطريق لحقهم
طالبا سراقة بن مالك المدلجى وكان قد رأى رسل مشركى قريش يجعلون فى
رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما هو فى
مجالس من مجالس قومه بنى مدلج اذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس
فقال ياسراقة إنى رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه فعرف

سراقة أنهم هم ولكنه أراد أن يثنى عزم مخبره عن طلبهم فقال : إنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبث فى المجلس ساعة وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه فعثرت به فرسه فخر عنها ثم ركبها ثانياً وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت قائمتا فرس سراقة فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لأثرهما غبار ساطع فى السماء مثل الدخان فعلم سراقة أن عمله ضائع سدى وداخله رعب عظيم فناداهما بالأمان فوقف عليه السلام ومن معه حتى جاءهم، ويقول سراقة : وقع فى نفسى حين لقيت مالقيت أن سيظهر أمر رسول الله فقلت إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرهم بما يريد بهم الناس وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً بل قالا له . أخف عنا فسأله سراقة أن يكتب له كتاب أمن فأمر أبا بكر فكتب. وبذلك انقضت هذه المشكلة التى أظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله ، وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم يخرجون الى الحرة [1] حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً بعد أن أطالوا انتظارهم ، فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم [2] من آطامهم لأمر ينظر اليه فبصر برسول

---

(١) هى الأرض ذات الحجارة السود وكانت المدينة محاطة بجملة حرات

(٢) تل

الله وأصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى فقال اليهودى بأعلى صوته : يامعشر العرب هذا جدكم أى حظكم الذى تنتظرون ؛ فثاروا الى السلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحرة .

النزول بقباء

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقباء والذى حققه المرحوم محمود باشا الفلكى أن ذلك كان فى اليوم الثانى من ربيع الأول الذى يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ وهذا أول تاريخ جديد[1] لظهور الاسلام بعد أن مضى عليه ثلاثة عشرة سنة وهو مضيق عليه من مشركى قريش ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه ، أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم بعد أن كانوا قليلا يتخطفهم الناس .

هجرة الانبياء

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا صلى الله عليه وسلم سنة إخوانه من الانبياء من قبله فما من نبى منهم إلا نبت به بلاد نشأته فهاجر عنها من ابراهيم أبى الأنبياء وخليل الله الى عيسى كلمة الله وروحه كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالا لمن يأتى بعدهم من متبعيهم فى الثبات والصبر على المكاره مادام ذلك فى طاعة الله. فسل مصر وتاريخها تنبئك عن إسرائيل (يعقوب) و بنيه أنهم هاجروا إليها حينما

---

(١) لما أراد المسلمون فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة ولعدم المخالفة بين مبدإ الهجرة وبدء السنة الهلالية قدموا ميعاد الهجرة شهرين وأياما وجعلوا بدء الهجرة من محرم سنتها.

رأوا من بنيها ترحيباً بهم وتركهم وما يعبدون إكراما ليوسف وحكمته.
ولما مضت سنون نسى فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم فاضطهدوا
بنى اسرائيل وآذوهم خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله
حقه فى عبادته وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذبوه فأرادوا
الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه (طوبى للمطرودين من أجل
البر لأن لهم ملكوت السموات) ثم قال بعد (افرحوا وتهللوا لأن
أجركم عظيم فى السموات فانهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم) وسل القرى
حلت بها نقمة الله لكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مهاجرة
الانبياء منها قبل حلول النقمة ، فلا غرابة أن هاجر عليه السلام من بلاد
منعه أهلها من تتميم ما أراده الله (سُنَّةَ اللهَ فى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)

أعمال مكة

هذا ولنبين لك مجمل مادعا اليه الرسول عليه السلام بمكة من أصول
الدين وذلك امران (الأول) الاعتقاد بوحدانية الله وأن لا يشرك معه فى
العبادة غيره سواء كان ذلك الغير صنماً كما يفعل مشركو مكة أو أباً أو زوجة
أو بنتاً كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى. ولولا الاعتقاد بوحدانية
الله ما كلف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق بل كان يسير
فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها مادام ذلك خافياً عن الناس.
(الثانى) الاعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوما ثانياً للانسان يجازى

فيه على ما صنعه فى الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآى المكية فقلما نرى سورة من سور مكة إلا مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدًى. ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من القرآن معظمه وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه وهى البقرة : آل عمران : النساء : المائدة : الانفال : التوبة : الحج : النور : الاحزاب : القتال : الفتح : الحجرات : الحديد : المجادلة : الحشر : الممتحنة : الصف : الجمعة : المنافقون : التغابن : الطلاق : التحريم : النصر : هذه كلها مدنية وباقى القرآن مكى .

ولما نزل عليه السلام بقباء نزل على شيخ بنى عمر وكلثوم بن الهدم وكان يجلس للناس ويتحدث لهم فى بيت سعد بن خيثمة لانه كان عزباً ونزل أبو بكر بالسنح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بنى الحارث من الخزرج

مسجد قباء

وأقام رسول الله بقباء ليالى أسس فيها مسجد قباء الذى وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم وصلى فيه عليه السلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون وكانت المساجد على عهد رسول الله فى غاية من البساطة ليس فيها شىء مما اعتاده بناة المساجد فى القرون الاخيرة لان الرسول وأصحابه لم يكن جل همهم الا منصرفا لتزين القلوب وتنظيفها من حظ الشيطان فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يتقى بها حر الشمس.

الوصول الى المدينة

(ثم) تحول عليه السلام الى المدينة والأنصار محيطون به متقلدى سيوفهم، وهنا حدث ولا حرج عن سرور أهل المدينة فكان يوم تحوله اليهم يوما سعيداً لم يروا فرحين بشيء فرحهم برسول الله وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البـدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته كل يريد أن يكون نزيله

أول جمعة

وأدركته عليه السلام صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فنزل وصلاها وهذه أول جمعة له عليه السلام وأول خطبة خطبها عليه السلام حمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل

ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزى الحسنةعشرة أمثالها الى سبعمائةضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

النزول على أبى أيوب

ثم ساروا وكلما مروا على دار من دور الأنصار يتضرع اليه أهلها بأن ينزل عندهم ويأخذون بزمام الناقة فيقول دعوها فانها مأمورة ولم تزل سائرة حتى أتت بفناء بنى عدى بن النجار وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبى أيوب الانصارى واسمه خالد بن زيد [1] وذلك محل مسجده الشريف فقال عليه السلام ههنا المنزل إن شاء الله (رَبِّ انْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه فى منزله وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده وخرجت ولائد بنى النجار يقلن :

نحن جوار من بنى النجار　　　يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام أتحببننى ؟ فقلن نعم، فقال الله يعلم أن قلبى يحبكن . واختار عليه السلام النزول فى الدور الأسفل من دار أبى أيوب ليكون أريح لزائريه ولكن لم يرض رضى الله عنه ذلك كرامة لرسول الله لما يمكن أن يصيبه من التراب الذى يحدثه وطء الأقدام أو الماء الذى يهراق، فقد اتفق أن كسرت من زوجته جرة ماء بالليل فقام هو وهى بقطيفتهما التى ليس لهما غيرها يمسحان الماء خوفاً على رسول الله، ولذلك لم يزل أبو أيوب

---

(١) توفى زمن معاوية فى حصار القسطنطينية ودفن هناك خارج المدينة

يستعطفه حتى كان فى العلو وكانت تأتيه الجفان كل ليلة من سراة الأنصار كسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وأم زيد بن ثابت فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد

نزول المهاجرين

ولما تحول مع رسول الله أغلب المهاجرين تنافس فيهم الانصار فحكموا القرعة بينهم فما نزل مهاجر على أنصارى الا بقرعة .

أخوة الاسلام

ومس يتأمل الى هذه المحبة التى يستحيل أن تكون بتأثير بشر بل بفضل من الله ورحمته يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العِدد والعَدد

وكان الأنصار يؤثرون اخوانهم المهاجرين على أنفسهم قال تعالى فى سورة الحشر (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . وهذا أعلى درجات الأخوة وكل ذلك كانوا يرونه قليلا بالنسبة لما وجب عليهم لاخوانهم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمكن بينهم الإخاء آخى بين المهاجرين والأنصار فكان كل أنصارى ونزيله أخوين فى الله . ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضح للقارىء أن هذه الأخوة

كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية بل نكل ذلك للاحساس الاسلامى فانه أفصح منطقاً من القلم . وعلى الاجمال فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً فى أجسام متفرقة وعسى الله أن يوفق مسلمى عصرنا الى هذا الاخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون وكان هذا الاخاء على المواساة والحق وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين (تآخيا فى الله أخوين أخوين) ودام هذا الميراث الى أن أنزل الله سبحانه قوله فى سورة الأحزاب (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه السلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله وأرسل معهما عبدالله بن أريقط يدلهما على الطريق فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه عليه السلام وسودة زوجه وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة، أما زينب فنعها زوجها أبو العاص بن الربيع وخرج مع الجميع عبدالله بن أبى بكر بأم رومان زوج أبيه وعائشة أخته وأسماء زوج الزبير بن العوام وكانت حاملا بابنها عبدالله وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة.

حمى المدينة

ولم يكن هواء المدينة فى البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة فأصاب كثيراً منهم الحمى وكان رسول الله يعودهم فلما شكوا اليه الأمر قال اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة وأشد وبارك لنا فى مدها

وفى صاعها وانقل وباءها إلى الجحفة[1] فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون فى المدينة بسلام .

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم منهم الوليد بن الوليد وعياش بن ربيعة وهشام بن العاص فكان عليه السلام يدعو لهم فى صلاته وهذا أصل القنوت وقد حصل فى أوقات مختلفة ومحال فى الصلاة مختلفة فكان فى وتر العشاء وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله فروى كل صحابى ماراآه وهذا سبب اختلاف الأئمة فى مكان القنوت

السنة الأولى — بناء المسجد

ثم شرع عليه السلام فى بناء مسجده فى مبرك ناقته أمام محلة بنى النجار وكان محله مربداً للتمر يملكه غلامان يتيمان فى حجر أسعد بن زرارة فدعا الغلامين وساومهما المربد ليتخذه مسجداً فقالا بل نهبه لك يارسول الله فأبى عليه السلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل فأمر بالقبور فنبشت وبالحفر فسويت وبالنخل فقطع ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ وشرعوا فى البناء به وجعلوا عضادتى الباب من الحجارة وسقفوه بالجريد وجعلت عمده من جذوع النخل ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلا وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين

---

(١) قرية على اثنين وثمانين ميلا من مكة وهى ميقات أهل الشام

في العمل وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم .

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وجعلت قبلة المسجد فى شماله إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثر فيه فأمر عليه السلام بحصبه ولم يزين المسجد بفرش حتى ولا بالحصر وبنى بجانبه حجرتان إحداهما لسودة بن زمعة والأخرى لعائشة ولم يكن عليه السلام متزوجا غيرهما إذ ذاك وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه وصارت الحجرات تبنى كلما جاءت زوج .

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائما متذكرين عظمة العلى الأعلى فيتبعون أوامره ويجتنبون نواهيه ولذلك قال فى محكم كتابه فى سورة العنكبوت (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) . وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً فى شؤونهم واحتياجاتهم ويقووا روابط الألفة والاتحاد بينهم ومتى حان وقت الصلاة فلا بد من عمل ينبه الغافل ويذكر الساهى حتى يكون الاجتماع عاماً فأتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك فقال بعضهم ترفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل وقال الآخرون تشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم فكرهه رسول الله لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود فى عمل ما وأشار بعضهم

بالناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول أيضا وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادى بها فقبل هذا الرأى وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصارى فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال : ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال بلى ، فقال له : قل الله أكبر الله أكبر مرتين وتشهَّد مرتين ثم قل حى على الصلاة مرتين حى على الفلاح مرتين ثم كبر ربك مرتين ثم قل لا إله إلا الله فلما استيقظ توجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره خبر رؤياه فقال إنها لرؤيا حق ثم قال له لقن ذلك بلالاً فانه أندى صوتا منك ؟ وبينما بلال يؤذن اذ جاء عمر يجر رداءه فقال والله لقد رأيت مثله يارسول الله وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبد الله بن أم مكتوم وكان بلال يقول فى أذان الصبح بعد حى على الفلاح الصلاة خير من النوم مرتين وأقره الرسول على ذلك وكان عليه السلام يأمر فى فجر رمضان بأذانين أولهما يوقَظ به الغافلون حتى ينتبهوا اللسحور والثانى للصلاة . أما الأذان للجمعة فكان أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء رواه البخارى ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذى زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار ثم نقل الأذان الذى كان على المنارحين صعود الامام على المنبر فى العهد الأول بين يديه .

فعلم بذلك أن الأذان فى المسجد بين يدى الخطيب بدعة أحدثها هشام بن عبد الملك ولا معنى لهذا الأذان لأنه هو نداء الى الصلاة ومن

هو فى المسجد لامعنى لندائه ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء اذا كان النداء فى المسجد ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج فى المدخل .

قال الحافظ فى فتح البارى : وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء اليها بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو فى بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى اه

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أذان الجمعة أنه كان اذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار فاذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع .

أما الاقامة وهى الدعوة للصلاة فى المسجد فقد اختلفت الروايات فى نصها فرواها محمد بن ادريس الشافعى مفردة إلا لفظ قد قامت الصلاة فمثنى ورواها مالك ابن أنس مفردة كلها ورواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها

يهود المدينة

(هذا) وكما ابتلى الله المسلمين فى مكة بمشركى قريش ابتلاهم فى المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير فانهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم أنه الحق وكانوا قبل مجىء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبى يبعث قد قرب زمانه، فلما جاءهم ماعرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوة فى ولد اسماعيل فكفروا بما أنزل الله بغياً مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التى أنزلها على من سبقه من

المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون . ومما عابوه على الاسلام نسخ الأحكام ومادروا أن القادر العليم يعلم مايحتاج إليه الانسان أكثر منهم فانه ميال بطبعه للترقى والرسول عليه السلام وجد بادىء بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من الاعتقادات الالهية فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج لأنه لو حرم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا الى آخر الأوامر والمناهى التى جاء بها الشرع الاسلامى لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين فى كثير من الاضاليل فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر شيئاً فشيئاً حتى روضت عقولهم وهذبت نفوسهم وكانت الأحكام لاينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التى تقتضيها ليكون التأثير فى النفوس أشد ولكن اليهود أرادوا غل يد القدرة على أن تفعل إلا ما يشتهون وقد حجهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق فقال فى سورة البقرة (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ثم حتم جل ذكره عدم إجابتهم بقوله (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نطقاً باللسان. وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بنى قينقاع وهو عبد الله بن سلام فترك هواه وأسلم بعد أن

سمع القرآن وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم عدوه من سفائهم حينما بلغهم إسلامه فبئسما اشتروا لأنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ولما استحكمت فى قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون أنفسهم فى إطفاء نوره (وَيَأْبَى اللّٰهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

المنافقون

وكان يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم فأخفقوا كفرهم خوفا على حياتهم وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أبيّ ابن سلول الخزرجى الذى كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً والأساس الذى كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ولكنه عليه السلام مع ذلك كان لا يأمنهم فى عمل ما . فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الأنصار ولكن لم يعهد أنه ولى رجلا ممن عهد عليه النفاق لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملا فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين ، وهذا درس مهم لرؤساء الاسلام يعلمهم أنهم لا يثقون فى الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهة النفاق أو اظهار ما يخالف ما فى الفؤاد .

معاهدة اليهود

هذا وقد علمت أنه كان يضاد المسلمين فى المدينة فئتان: اليهود، والمنافقون. ولكن الرسول قبل من هؤلاء ظواهرهم وعقد مع أولئك عهداً مقتضاه. ترك الحرب والأذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه أحداً وإن. دهمه بالمدينة عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم.

مشروعية القتال

قد علم مما تقدم أن رسول الله عليه السلام لم يقاتل أحداً على الدخول فى. الدين بل كان الأمر قاصراً على التبشير والانذار ، وكان الله سبحانه ينزل. عليه من الآى مايقويه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش ،. ومن ذلك قوله فى سورة الأحقاف (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) . وكان كثيراً مايقص الله عليه أنباء اخوانه من المرسلين قبله. ليثبت به فؤاده ولما ازداد طغيان أهل مكة ألجؤوه الى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركى قريش بقوله فى سورة الحج (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) ثم أمرهم بذلك فى قوله فى سورة البقرة (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ

وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) . وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة مشركى العرب واتحدوا عليهم مع الأعداء أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله فى سورة التوبة (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) وبذلك صار الجهاد عاما لكل من ليس له كتاب من الوثنيين وهذا مصداق قوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله) . ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث انهم ساعدوا المشركين فى حروبهم أمر الله بقتالهم بقوله فى سورة الأنفال (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادىء الآتية :

(١) اعتبار مشركى قريش محاربين لأنهم بدءوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين

(٢) متى رئى من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفى أو القتل

(٣) متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالاسلام

(٤) كل من باداً بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يذعن بالاسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر

(٥) كل من أسلم فقد عصم دمه وماله الا بحقه والاسلام يقطع ماقبله

وقد أنزل الله فى القرآن الكريم كثيراً من الآى تحريضاً على الاقدام فى قتال الأعداء وتبعيداً عن الفرار من الزحف فقال فى الموضوع الأول فى سورة النساء (فَلْيُقَاتِلْ فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً) . وقال فى الموضوع الثانى فى سورة الأنفال : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاتُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها الى الشام لتبيع وتبتاع ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسراتهم ولا بد لوصولهم الى الشام من المرور على دار الهجرة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآئبة ليكون فى ذلك عقاب لمشركى مكة حتى تضعف قوتهم المالية فيكون ذلك أدعى

لخذلانهم فى ميدان القتال الذى لا بد أن يكون لأن قريشاً لم تكن لتسكت عمن سفه أحلامهم وعاب عبادتهم خصوصاً وهم قدوة العرب فى الدين .

سرية [١]

ففى شهر رمضان أرسل عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين رجلا من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد حليف حمزة ليعترض عيراً لقريش آئبة من الشام فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص [٢] فصادف العير هناك فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى فأطاعوه وانصرفوا وشكر عليه السلام مجدياً على عمله لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم

وفى شوال أرسل عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة فى ثمانين راكباً من المهاجرين وعقد له لواءً أبيض حمله مسطح بن أثاثة ليعترض عيراً لقريش فيها مائتا رجل فوافوا العير ببطن رابغ [٣] فكان بينهم الرمى بالنبل ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين الى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين .

---

(١) السرية قطعة من الجيش ونريد بها كل غزاة لم يكن فيها رسول الله والتى كان فيها تسمى غزوة

(٢) عرض من أعراض المدينة أى ناحية منها

(٣) واد بين الحرمين قرب البحر

وفيات

وفى هذه السنة توفى من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع أسلم قديما وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ووضع على قبره حجراً وقال : أتعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلى وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر لا مايقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور وتصويرها بصور ترى فى عين الناظر كالأصنام ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيراً ما تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله مما يتعلق بأمور الآخرة .

ومات من الأنصار أسعد بن زرارة أحد النقباء الاثنى عشر كان رضى الله عنه نقيب بنى النجار ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن ابن أخت القوم منهم ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء وهو الذى كان يتكلم عن القوم فى العقبة الثانية ، ومات من مشركى مكة فى هذه السنة الوليد بن المغيرة ولما احتضر جزع فقال له أبو جهل ماجزعك ياعم فقال والله ما بى من جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبى كبشة بمكة فقال أبو سفيان لاتخف انى ضامن أن لا يظهر وفيهما أيضا مات العاصى بن وائل السهمى . وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين

السنة الثانيـــة ـ غزوة ودان

ولاثنتى عشرة ليلة خلت من السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة ليعترض عيراً لقريش فسار حتى بلغ ودان [1] وكان يحمل لواءه عمه حمزة ولم يلق هناك حربا لأن العير كانت قد سبقته، وفى هذه الغزوة صالح بنى ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم وان عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا ثم رجع إلى المدينة بعد مضى خمس عشرة ليلة.

غزوة بواط

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آئبة من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير فسار اليها فى مائتين من المهاجرين وذلك فى ربيع الأول وكان يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص فسار حتى بلغ بواط [2] فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيدا ، وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد فى تعمية أخبارهم عن أهل المدينة.

غزوة العشيرة

وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها فقد

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ستة أميال
(٢) جبال جهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع

جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعث به فى تلك العير وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلا فخرج لها الرسول فى جمادى الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائراً حتى بلغ العشيرة فوجد العير قد مضت، وحالف عليه السلام فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم ثم رجع عليه السلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع .

غزوة بدر الأولى

وبعد رجوعه عليه السلام بقليل جاء كرز بن جابر الفهرى وأغار على سرح المدينة وهرب فخرج الرسول فى طلبه واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الانصارى وحمل لواءه على بن أبى طالب فسار حتى بلغ سفوان[1] وفاته كرز فلم يلق حربا ،وتسمى هذه الغزوة بدرا الأولى

سرية

وفى رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال يرأسها عبد الله بن جحش وأعطاه كتاباً مختوماً لا يفضه إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فاذا فيه (إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم) وانما لم يخبرهم عليه السلام بمقصدهم وهم بالمدينة حذراً من شيوع الخبر

(١) واد من ناحية بدر

فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود فتترصد لهم قريش. ولا يخفى أن عدد السرية قليل لايمكنه المقاومة ثم سار عبد الله رضى الله عنه وفى أثناء السير تخلف سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان لأنهما أضلا بعيرهما الذى كانا يعتقبانه وسار الباقون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان بن عبد الله ابن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا مامعهم فحملوا عليهم فى آخر يوم من رجب فقتلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا عثمان والحكم وهرب نوفل واستاقوا العير وهى أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم، فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا فى الأشهر الحرم وعابتهم قريش واليهود بذلك عنفهم المسلمون وقال لهم عليه السلام ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم فندموا فأنزل الله فى سورة البقرة (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) فسرى عنهم. وقد طلب المشركين فداء أسيريهما فقال عليه السلام حتى يرجع سعد وعتبة فلما رجعا قبل عليه السلام الفدية فى الأسيرين ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه مع المسلمين، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً.

تحويل القبلة

مكث عليه السلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس فى صلاته، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلب وجهه فى السماء داعياً الله بذلك. فبينما هو فى صلاته إذ أوحى الله اليه بتحويل القبلة الى الكعبة فتحول وتحول من وراءه. وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم وقد أكثر اليهود من التنديد على الاسلام بهذا التحويل وما دروا أن لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

صوم رمضان

وفى شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الاسلامية وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التى بها يتم النظام فان الانسان مجبول على حب نفسه والسعى فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركا ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين فلابد من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش إذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه فيسهل عليه بذل الصدقات.

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة.

زكاة المال

وفى هذا العام فرضت زكاة الأموال وهذه هى النظام الوحيد الذى به يأكل الفقراء والمساكين من اخوانهم الاغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فاذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين وحال عليها الحول وجب عليك أن تؤدى ربع عشرها أى اثنين ونصفا فى كل مائة ومازاد فبحسابه، واذا بلغت الشياه أربعين والبقر ثلاثين والابل خمسا وحال عليها الحول وجب عليك كذلك أن تؤدى منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الامام ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين فى آية الصدقة (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لأول نظرة أن هذا النظام مع عدم إضراره بالأغنياء مقال لمصائب الفقر التى ألجأت كثيراً من فقراء الأمم أن يخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادىء تقويض العمران وتداعى الأمن كما يفعله الاشتراكيون وغيرهم.

غزوة بدر الكبرى

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التى خرج لها عليه السلام وهى متوجهة الى الشام فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها ، فلما سمع برجوعها ندب إليها أصحابه وقال: هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها

فأجاب قوم وثقل آخرون لظنهم أن الرسول عليه السلام لم يرد حرباً فانه لم يحتفل بها بل قال: من كان ظهره حاضراً فليركب معنا. ولم ينتظر من كان ظهره غائباً فخرج لثلاث ليال خلون من رمضان بعد أن ولى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وكان معه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا: مائتان ونيف وأربعون من الأنصار والباقون من المهاجرين ومعهم فرسان وسبعون بعيراً يعتقبونها، والحامل للواء مصعب بن عمير العبدري. ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم استأجر راكباً ليأتى قريشاً ويخبرهم الخبر فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم وخافوا على تجارتهم فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم الا أبو لهب بن عبد المطلب فانه أرسل بدله العاص ابن هشام بن المغيرة. وأراد أمية بن خلف أن يتخلف لحديث حدثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل حيث قال كما رواه البخارى: سمعت من رسول الله يقول إنهم قاتلوك قال بمكة، قال لا أدرى ففزع لذلك وحلف أن لا يخرج فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوع بعد قليل. ولكن إرادة الله فوق كل ارادة، فان منيته ساقته الى حتفه رغم أنفه. وكذلك عزم جماعة من الأشراف على القعود فعيب عليهم ذلك وبهذا أجمعت رجال قريش على الخروج فخرجوا على الصعب والذلول أمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ) وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلا يعتبر به ذوو الرأى من بعدهم فقال فى سورة الحشر: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ

منكَ إنِّى أخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ) وهكذا كان عمله فى هذه الواقعة (فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِئٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَالاَ تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) . وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس وسبعمائة بعير (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون ولم يكن خروجه إلا للعير فعسكر ببيوت السقيا خارج المدينة واستعرض الجيش فرد من ليس له قدرة على الحرب ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير. ولما بلغ الروحاء [1] جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدراً غداً أو بعد غد فجمع عليه السلام كبراء الجيش وقال لهم (أيها الناس ان الله قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم العير أو النفير) فتبين له عليه السلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهى العير ليستعينوا بما فيها من الأموال فقد قالوا هلا ذكرت لنا القتال فنستعد وجاء مصداق ذلك قوله تعالى فى سورة الأنفال (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ). ثم قام المقداد بن الأسود رضى الله عنه فقال : يارسول الله امض لما أمرك الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى (إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون والله لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فدعا له بخير، ثم قال عليه السلام أشيروا على أيها الناس وهو يريد

(١) موضع على ثلاثين أو أربعين ميلا جنوب المدينة الغربى

الأنصار لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لاتجب عليهم نصرته الا مادام بين أظهرهم. فان فيها يارسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل الى دارنا فاذا وصلت اليها فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فقال سعد ابن معاذ سيد الأوس: كأنك تريدنا يارسول الله؟ فقال: أجل، فقال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لنخوضنه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر على بركة الله، فأشرق وجهه عليه السلام وسر بذلك وقال كما فى رواية البخارى (أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم) فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لابد حاصلة وحقيقة حصلت فان أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة وسار متبعاً ساحل البحر فنجا وأرسل إلى قريش يعلمهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع فقال أبو جهل لانرجع حتى نحضر بدراً[١] فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً. فقال الأخنس ابن شريق الثقفى لبنى زهرة وكان حليفاً لهم: ارجعوا ياقوم فقد نجى الله أموالكم فرجعوا ولم يشهد بدراً زهرى ولا عدوى، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادى بدر فنزلوا عدوته القصوى[٢] عن المدينة فى أرض سهله لينة

(١) محل بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب فى الجنوب الغربى منها على الطريق السلطانى، وكان به سوق تعقد كل سنة ثمانية أيام

(٢) عدوة الوادى: شاطئه

أما جيش المسلمين فانه لما قارب بدراً أرسل عليه السلام على بن أبي طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص السهميين فأتيا بهما والرسول عليه السلام قائم يصلى ثم سألاهما عن أنفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبى سفيان فقال الغلامان نحن لأبى سفيان فتركاهما. ولما أتم الرسول عليه السلام صلاته قال اذا صدقا كم ضربتموهما واذا كذبا كم تركتموهما؟! صدقا. والله انهما لقريش. ثم قال لهما: أخبرانى عن قريش؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب، فقال لهما: كم هم؟ فقالا: لا ندرى. قال كم ينحرون كل يوم. قالا: يوما تسعا ويوما عشراً؟ قال القوم ما بين التسعمائة والألف ثم سألهما عمن فى النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيما فقال عليه السلام لأصحابه هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها [1] ثم ساروا حتى نزلوا بعدوة الوادى الدنيا من المدينة بعيدا عن الماء فى أرض سبخة فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جنب وبعضهم محدث فخدثهم الشيطان بوسوسته ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم فانه قال لهم ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاءوا

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادى فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى واغتسلوا وتوضئوا وملأوا الاسقية ولبدت الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين فانه وحل الأرض حتى لم يعودا يقدرون على الارتحال. ومصداق هذا قوله تعالى فى

---

(١) قطع كبدها

سورة الانفال (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقْدَامَ)

وقد أرى الله رسوله فى منامه الاعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلى العدة كيلا يفشل المسلمون وليقضى الله أمرا كان مفعولا. قال تعالى فى سورة الأنفال : (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ).

ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن المنذر الانصارى وكان مشهوراً بجودة الرأى :يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال يارسول الله: ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فانى أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغور ما عداه من الآبار ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول عليه السلام: لقد أشرت بالرأى. ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغورت لينقطع أمل المشركين فى الشرب من وراء المسلمين وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه.

ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس يانبي الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا

كان ذلك ما أحببنا وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله مانحن بأشد لك حباً منهم ولا أطوع لك منهم رغبة فى الجهاد ونية. ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير؛ يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك ، فقال عليه السلام : أو يقضى الله خيراً من ذلك. ثم بنى للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب ولما اجتمعوا عدل عليه السلام صفوفهم مناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص ثم نظر لقريش فقال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى به). وفى هذا الوقت وقع خلف بين رؤساء عسكر المشركين فان عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو ابن الحضرمى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش ويحمل ما أصيب من عيره ودعا الناس الى ذلك، فلما بلغ أباجهل الخبر وسمه بالجبن وقال والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وقبل أن تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبدالأسد المخزومى وقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فخرج اليه حمزة ابن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبر قسمه فاتبعه حمزة فقتله . ثم وقف عليه السلام يحرض الناس على الثبات والصبر وكان فيما قال (وان الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم) . ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر عتبة بن ربيعة بين أخيه

شيبة وابنه الوليد فطلبوا أكفاءهم فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار فقالوا لا حاجة لنا بكم إنما تريد أكفاءنا من بنى عمنا فأخرج لهم عليه السلام عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب للأول وحمزة بن عبد المطلب للثانى وعلى بن أبى طالب للثالث. فأما حمزة وعلى فقتلا صاحبيهما وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه فحمل رفيقا عبيدة على عتبة فأجهزا عليه وحمل عبيدة بين الصفوف جريحاً يسيل مخ ساقه وأضجعوه الى جانب موقفه صلى الله عليه وسلم فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها وبشره عليه السلام بالشهادة ، فقال : وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه السلام بين الصفوف يعدلها بقضيب فى يده ،فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال: استقم ياسواد ،فقال أوجعتنى يارسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدنى من نفسك .فكشف الرسول عليه السلام عن بطنه وقال استقد ياسواد؛ فاعتنقه سواد وقبل بطنه. فقال عليه السلام: ما حملك على ذلك؟ فقال يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له بخير ثم ابتدأ عليه السلام يوصى الجيش فقال (لا تحملوا حتى آمركم وان اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) ثم حضهم على الصبر والثبات ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه وأبو بكر وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش.

متوشح سيفه وكان من دعاء الرسول عليه السلام ذاك الوقت كما جاء في صحيح البخارى (اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد) فقال أبو بكر: حسبك فان الله سينجز لك وعدك ،فخرج عليه السلام من العريش وهو يقول (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ). ثم قال عليه السلام يحرض الجيش (والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ومن قتل قتيلا فله سلبه) فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها بخ بخ ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل واشتد القتال وحمى الوطيس وأيد الله المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم فلم تكن إلا ساعة حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من المشركين نحو السبعين منهم من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلوا مبارزة أول القتال وأبو البخترى ابن هشام والجراح والد أبى عبيدة قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر ،وقتل أمية بن خلف وابنه على اشترك فى قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمار بن ياسر وقد سعيا فى ذلك لما كان يفعله بهما أمية فى مكة. ومن القتلى حنظلة بن أبى سفيان وأبوجهل ابن هشام أثخنه فتيان صغيران من الأنصار لما كانا يسمعانه من أنه كان شديد الايذاء لرسول الله وأجهز عليه عبد الله بن مسعود وقتل نوفل ابن خويلد قتله على بن أبى طالب وقتل عبيدة والعاصى والد أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية وقتل كثيرون غيرهم، أما الأسرى فكانوا

سبعين أيضاً قتل منهم عليه السلام وهو راجع عقبة بن أبى معيط والنضر ابن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين . وكانت هـذه الواقعة فى ١٧ رمضان وهو اليوم الذى ابتدأ فيه نزول القرآن وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة .

وقد أمر عليه السلام بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التى كان الرسول عليه السلام أخبر بها قبل حصول الموقعة إلى قليب بدر لأنه عليه السلام كان من سننه فى مغازيه إذا مر بجيفة انسان أمر بها فدفنت لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً .ولما ألقى عتبة والد أبى حذيفة أحد السابقين إلى الاسلام توجه وجه ابنه ففطن الرسول عليه السلام لذلك فقال : لعلك دخلك من شأن أبيك شىء ؟ فقال : لا والله ولـكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلا فـكنت أرجو أن يهديه الله للاسلام فلما رأيت ما مات عليه أحزنى ذلك ، فدعا له الرسول عليه السلام بخير ثم أمر عليه السلام براحلته فشد عليها حتى قام على شفة القليب الذى رمى فيه المشركون فجعل يناديهـم بأسمائهم وأسماء آبائهم يافلان بن فلان ويافلان بن فلان أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . فقال عمر : يارسول الله ما تـكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، وتقول عائشة رضى الله عنها : انما قال انهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ثم قرأت إنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من فى القبور . تقول يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم

من النار (رواه البخارى) ثم أرسل عليه السلام المبشرين فأرسل عبد الله ابن أبى رواحة لأهل العالية[١] وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين عادة الأعداء فى إذاعة الضراء يقصدون بذلك فتنة المسلمين فجاء أولئك المبشرون بما سر أهل المدينة وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان. ثم قفل رسول الله راجعا وهنا وقع خلف بين بعض المسلمين فى قسمة الغنائم، فالشبان يقولون كنا ردءا لكم فنشاركم . ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو الى الضعف ويزرع فى القلوب العداوة والبغضاء المؤدين إلى تشتت الشمل أنزل الله حسما لهذا الخلاف أول سورة الأنفال (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فسطع على أفئدتهم نور القرآن فتألفت بعد أن كادت تفترق وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء كما حكم القرآن فقسمها عليه السلام على السواء الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس وأدخل فى الأسهام بعض من لم يحضر لأمر كلف به وهم :أبو لبابة الأنصارى لأنه كان مخلفا على أهل المدينة والحارث بن حاطب لأن الرسول عليه السلام خلفه على بن عمرو بن عوف ليحقق أمراً بلغه والحارث بن الصمة وأخوات بن جبير لأنهما كسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير وطلحة بن

(١) قرى بظاهر المدينة وهى العوالى

عبيد الله وسعيد بن زيد لأنهما أرسلا يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب وعثمان بن عفان لأن الرسول عليه السلام خلفه على ابنته رقية عرضها وعاصم بن عدى لأنه خلفه على أهل قباء والعالية وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الذى جرح فى المبارزة الاولى فانه رضى الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصفراء . ولما قارب عليه السلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكنني من فلان لقريب له فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس وعليا من أخيه عقيل . وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة ، وقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة

لنا على الكفار وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضداً فقال عليه السلام: إن الله ليُلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك ياأبا بكر مثل ابراهيم قال (فَمَن اتَّبَعَنِي فإنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فإنَّكَ غَفورٌ رَحِيمٌ) وان مثلك ياعمر مثل نوح قال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْارْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) ورأى عليه السلام رأى أبي بكر بعد أن مدح كلا من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهى إعزاز الدين وخذلان المشركين ثم قال لاصحابه: أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء وقد بلغ قريشا ماعزم عليه الرسول فى أمر الاسرى فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم أن لايفعلوا كيلا يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا على أن لايبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثارهم وتواصوا فيما بينهم أن لايعجلوا فى طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه .

الفداء

فلم يلتفت الى ذلك المطلب بن أبى وداعة السهمى وكان أبوه من الأسرى فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم وعند ذلك بعثت قريش فى فداء أسراها وكان أربعة آلاف الى الف درهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه (ومن) الأسرى عمرو بن أبى سفيان ولما طلب من أبيه فداؤه أبى وقال : والله لا يجمع محمد بين ابنى ومالى دعوه

يمسكوه فى أيديهم ما بدالهم. فبينما أبو سفيان بمكة إذ وجد سعد بن النعمان الأنصارى معتمرا فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو فمضى قوم سعد الى رسول الله وأخبروه فأعطاهم عمراً ففكوا به سعداً (ومن) الأسرى أبو العاص ابن الربيع زوج زينب بنت الرسول وكان عليه السلام قد أثنى عليه خيراً فى مصاهرته فانه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من أبى العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبى لهب بابنتى الرسول فامتنع وقال: والله لا أفارق صاحبتى وأحب أن لى بها امرأة من قريش ، ولما أسر أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها. فلما رأى عليه السلام تلك القلادة رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها قلادتها فافعلوا ،فرضى الأصحاب بذلك فأطلقه عليه السلام بشرط أن يترك زينب تهاجر الى المدينة. فلما وصل إلى مكة أمرها باللحاق بأبيها وكان الرسول أرسل لها من يأتى بها فاحتملوها . (هذا) ولما أسلم أبو العاص بن الربيع قبيل الفتح رد عليه امرأته بالنكاح الأول (ومن) الأسرى سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه فقال عمر بن الخطاب: دعنى يارسول الله أنزع ثنيتى سهيل يدلع [1] لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً، فقال عليه السلام (لا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبياً وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه) وقدم بفدائه مكرز بن حفص ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء . هـذا وقد حقق الله خبر

(١) يخرج

الرسول فى سهيل فانه لما مات عليه السلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الأعراب فقام سهيل هذا خطيبا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله: أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ألم تعلموا أن الله قال (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) وقال (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) ثم قال : والله وانى أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها فلا يغرنكم هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم فانه يعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بنى هاشم وتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمته تامة وإن الله ناصر من نصره ومقو دينه وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر) وان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم.

(ومن) الأسرى الوليد بن الوليد أفتكه أخواه خالد وهشام فلما افتدى ورجع إلى مكة أسلم فقيل له : هلا أسلمت قبل الفداء؟ فقال خفت أن يعدوا إسلامى خوفاً. ولما أراد الهجرة منعه أخواه ففر الى النبي فى عمرة القضاء. (ومن) الأسرى السائب بن يزيد وكان صاحب الراية فى تلك الحرب فدى نفسه وهو الجد الخامس للامام محمد بن ادريس الشافعى . (ومنهم) وهب بن عمير الجمحى كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثير الايذاء لرسول الله، جلس يوما بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر فقال عمير : والله لولا دين علىّ ليس عندى قضاؤه

وعيال أخشى عليهم الفقر بعدى كنت آتى محمداً فأقتله فان ابنى أسير فى أيديهم، فقال صفوان : دينك على وعيالك مع عيالى فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمه وانطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر مع نفر من المسلمين اذ نظر الى عمير متوشحا سيفه فقال : هذا الكلب عدو لله ماجاء إلا بشر، ثم قال للنبي عليه السلام: هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، فقال: أدخله على . فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله. فلما رآه عليه السلام قال: أطلقه ياعمر، أدن ياعمير فدنا وقال : انعموا صباحا، فقال عليه السلام قد أبدلنا الله تحية خيراً من تحيتك وهى السلام، ثم قال ما جاء بك ياعمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف ؟ قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ قال عليه السلام: اصدقنى ما الذى جئت له؟ قال ما جئت إلا لذلك. قال عليه السلام: كلا بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر وقلتما كيت وكيت فأسلم عمير وقال كنا نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى وهذا أمر لم يحضره الا أنا وصفوان !! فقال عليه السلام: فقهوا أخاكم فى دينه واقرؤوه القرآن وأطلقوا أسيره. فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه (ومن) الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير مر به أخوه فقال للذى أسره: شديدك به، فان أمه ذات متاع لعلها تفديه. فقال له يا أخى هذه وصايتك بى! ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم (ومن) الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد خرج لهذه الحرب مكرهاً ولما وقع فى الأسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبى طالب، فقال: علام ندفع وقد استكرهنا على

الخروج ؟فقال عليه السلام: لقد كنت فى الظاهر علينا فأخذت منه فدية نفسه وابن أخيه ، ثم قال للرسول: لقد تركتنى فقير قريش مابقيت ، قال كيف وقد تركت لأم الفضل أموالا وقلت لها إن مت فقد تركتك غنية! فقال العباس: والله ما اطلع على ذلك أحد . وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة فانه عليه السلام لم يعف عمه مع علمه بأنه إنما خرج مكرها وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل، ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ). (ومن) الأسرى أبو عزة الجمحى الشاعر كان شديد الايذاء لرسول الله بمكة فلما أسر قال: يامحمد إنى فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن، فمن عليه فضلا منه.

العتاب فى الفداء

ولما تم الفداء أنزل الله فى شأنه (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الاثخان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله أن لايعاقب مجتهداً على اجتهاده مادام المقصد خيراً لكان العذاب ، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبنى أخذها على النظر الصحيح . وهذا

من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه السلام فيما جاء به لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناء على رأى كثير من الصحابة. وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم فى قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فى أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فى قُلُوبِكُمْ خيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وهذه الغزوة هى التى أعز الله بها الاسلام وقوى أهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم فهى آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالاسلام وأهله مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسومة والخيلاء الزائدة ولذلك قال الله ممتنا على عباده بهذا النصر (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) أى قليل عددكم لتعلموا أن النصر انما هو من عند الله فهى أعظم غزوات الاسلام اذ بها كان ظهوره وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألداء للاسلام ودخل الرعب فى قلوب العرب الآخرين فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال، فلا جرم أن شكرنا العلى الأعلى على هذه العناية واتخذنا يوم النصر فى بدر وهو السابع عشر من رمضان عيدا نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين .

غزوة قينقاع

هذا، واذا كان للشخص عدوان فانتصر على أحدهما حرك ذلك شجو

الآخر وهاج فؤاده فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه وهـذا ما حصل من يهود بنى قينقاع عند تمام الظفر فى بدر فانهم نبذوا ماعاهدوا المسلمين عليه وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار وهذا مما يدعو المسلمين للتحرز منهم وعدم ائتمانهم فى المستقبل اذا شبت الحرب فى المدينة بين المسلمين وغيرهم فأنزل الله فى سورة الأنفال (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ (١) إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) فدعا عليه السلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد فقالوا: يا محمد لا يغرنك مالقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس وكانوا أشجع يهود فأنزل الله فى سورة آل عمران (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبد الله بن أبى وقال إنى رجل أخشى الدوائر فأنزل الله تعليما للمسلمين فى سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ

---

(١) أى فاطرح لهم العهد على طريق مستو، قصد بأن تظهر لهم نبذ العهود ولا تناجزهم الحرب أوهم على توهم بقاء العهد لأن ذلك خيانة ولذا قال (ان الله لا يحب الخائنين)

مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ).

وعند ما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار اليهم عليه السلام فى نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمه الحمزة وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصارى فحاصرهم خمسة عشرة ليلة .

جلاء قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال فقبل ذلك عليه السلام ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا إلى أذرعات[1] ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا وخمس عليه السلام أموالهم وأعطى سهم ذوى القربى لبنى هاشم ولبنى المطلب دون بنى أخويهما عبد شمس ونوفل ، ولما سئل عن ذلك قال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد فى الجاهلية والاسلام هكذا وشبك بين أصابعه

غزوة السويق

كان أبو سفيان متهيجا لأنه لم يشاهد بدراً التى قتل فيها ابنه وذوو قرباه فحلف أن لا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً وليبر بقسمه خرج

(١) بلد بالشام

بمائتين من أصحابه يريد المدينة ، ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بنى النضير ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين ، فأتى سيدهم حيى بن أخطب فلم يرض مقابلته فأتى سلام بن مشكم فأذن له واجتمع به ثم خرج من عنده وأرسل رجالا من قريش الى المدينة فحرقوا فى بعض نخلها ووجدوا أنصاريا فقتلوه، ولما علم بذلك رسول الله خرج فى أثرهم فى مائتين من أصحابه لخمس خلون من ذى الحجة بعد أن ولى على المدينة بشير بن عبد المنذر ولكن لم يلحقهم لأنهم هربوا وجعلوا يخففون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الإسراع فألقوا ما معهم من جرب السويق فأخذه المسلمون، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق .

صلاة العيد

وفى هذا العام سن الله للعالم الاسلامى سنة عظيمة بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الأخاء ويقووا عروة الدين لوثقى وهى الاجتماع فى يومى عيد الفطر وعيد الاضحى. وكان عليه السلام يجمع المسلمين فى صعيد واحد ويصلى بهم ركعتين تضرعا إلى الله أن لا يفصم عروتهم وأن ينصرهم على عدوهم ثم يخطبهم حاضاً لهم على الائتلاف ومذكرا لهم ما يجب عليهم لأنفسهم ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين حتى يكون السرور عاماً لجميع المسلمين فبعد الفطر زكاته وبعد الأضحى تضحيته ، نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ويوفقنا لأعمال سلفنا .

زواج على بفاطمة عليهما السلام

وفى هذه السنة تزوج على بن أبى طالب وعمره احدى وعشرون سنة بفاطمة بنت رسول الله وسنها خمس عشرة سنة وكان منها عقب رسول الله بنو الحسن والحسين وزينب (وفيها) دخل عليه السلام بعائشة بنت أبى بكر وسنها إذ ذاك تسع سنوات .

السنة الثالثة

يالله يقضى على الشقى بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر فيتخذ الغدر رداء والخيانة شعاراً فلا ينجح معه إلا إراحة العالم من شره هذا كعب بن الأشرف اليهودى عظيم بنى النضير أعمته عداوة المسلمين حتى خلع برقع الحياء وصار يحرض قريشاً على حرب رسول الله ويهجوه بالشعر ويجتهد فى إثارة الشحناء بين المسلمين، فكلما جبر عليه السلام كسراً هاضه هذا الشقى بما ينفثه من سموم لسانه

قتل كعب بن الأشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر ورأى الأسرى مقرنين فى الحبال خرج الى قريش يبكى قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين فقال عليه السلام: من لكعب بن الأشرف فانه قد آذى الله ورسوله؟! فقال محمد بن مسلمة الأنصارى الأوسى: أتحب أن أقتله؟ قال نعم، قال: أنا لك به وأذن لى أن أقول شيئاً أتمكن به ، فأذن له ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً

فقال له: إن هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة وإنه قد عنانا وإنى قد أتيتك أستسلفك ، قال وأيضاو الله لتملنه قال إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين. قال : نعم ولكن ارهنونى. قالوا: أى شيء تريد؟ قال: ارهنونى نساءكم قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنونى أبناءكم. قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك اللأمة (يعنى السلاح) فرضى فواعده ليلا أن يأتيه فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر وكلهم أوسيون فناداه محمد بن مسلمة فأراد أن ينزل فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة وانك امرؤ تحارب ؟فقال انما هو ابن أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب. ثم قال محمد لمن معه إذا جاءنى فانى آخذ بشعره فأشمه فاذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فاضربوه فنزل إليهم كعب متوشحا سيفه وهو ينفح منه ريح المسك فقال محمد: ما رأيت كاليوم ريحا أطيب أتأذن لى أن أشم رأسك قال نعم فشمه، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه ففعلوا وأراح الله المسلمين من شر أعماله التى كان يقصدها بهم. ثم أتوا النبى فأخبروه وكان قتل هذا الشقى فى ربيع الأول من هذا العام وكان عليه السلام إذا رأى من رئيس غدراً ومقاصد سوء ومحبة لاثارة الحرب أرسل له من يريحه من شره. وقد فعل كذلك مع أبى عفك اليهودى وكان مثل كعب فى الشر.

غزوة غطفان

بلغ رسول الله أن بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دعثور يريدون الغارة على المدينة فأراد عليه السلام أن يغل أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء فخرج اليهم من المدينة فى أربعمائة وخمسين رجلا لثنى عشرة ليلةمضت من ربيع الأول وخلف على المدينة عثمان بن عفان. ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا إلى رؤوس الجبال ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أمر فعسكروا به وحدث أنه عليه السلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون فأبصره دعثور فأقبل اليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال: من يمنعك منى يا محمد؟ فقال: الله. فأدركت الرجل هيبة ورعب أسقطا السيف من يده، فتناوله عليه السلام وقال لدعثور: من يمنعك منى؟ قال لا أحد. فعفا عنه فأسلم الرجل ودعا قومه للاسلام وحول الله قلبه من عداوة رسول الله وجمع الناس لحربه إلى محبته وجمع الناس له (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ) وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

غزوة بحران

بلغه عليه السلام أن جمعاً من بنى سليم يرون الغارة على المدينة فسار إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه لست خلون من جمادى الاولى وخلف على

المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل إلى بحران [1] تفرقوا ولم يلق كيداً فرجع .

سرية

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق فى وجه تجارتهم ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم أرسلوا عيراً إلى الشام من طريق العراق وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان ابن أمية وحويطب بن عبد العزى فجاءت أخبارهم لرسول الله فأرسل لهم زيد بن حارثة فى مائة راكب يترقبونهم وكان ذلك فى جمادى الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القردة) بناحية نجد فأخذت العير وما فيها وهرب الرجال، وقد خمس الرسول عليه السلام هذه حينما وصلت له.

غزوة أحد

لما أصاب قريشا ما أصابها ببدر وأغلقت فى وجوههم طرق التجارة اجتمع من بقى من أشرافهم إلى أبى سفيان رئيس تلك العير التى جلبت عليهم المصائب وكانت موقوفة بدار الندوة ولم تكن سلمت لأصحابها بعد فقالوا: إن محمداً قد وترنا وقتل خيارنا وانا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعدادا لحرب محمد وأصحابه وقد رضى بذلك كل من له فيها نصيب وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار فجمعوا لذلك الرجال فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش وهم حلفاؤهم من بنى المصطلق وبنى

(١) موضع بناحية الفرع وهذا موضع من أضخم أعراض المدينة

الهون بن خزيمة ومعهم أبو عامر الراهب الأوسى وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عدد ممن هم على شاكلته وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة وقال صفوان بن أمية لأبى عزة الشاعر الذى لاينسى القارىء أن الرسول من عليه ببدر وأطلقه من غير فداء: انك رجل شاعر فأعنا بلسانك فقال إنى عاهدت محمدا أن لا أعين عليه وأخاف ان وقعت فى يده مرة ثانية أن لا أنجو فلم يزل به صفوان حتى أطاعه وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين ودعا جبير بن مطعم غلاما حبشيا له اسمه وحشى وكان رامياً قلما يخطىء فقال له اخرج مع الناس فان أنت قتلت حمزة بعمى طعيمة فأنت حر. ثم خرج الجيش ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور واصطحب الأشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الحليفة. أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به اليه عمه العباس ابن عبد المطلب الذى لم يخرج مع المشركين فى هذه الحرب محتجا بما أصابه يوم بدر. ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر وقال: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فان هم أقاموا أقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى ذلك أيضاً عبدالله بن أبى، أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدراً منهم فأشاروا عليه بالخروج وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لانهم الأكثرون عدداً والأقوون جلداً فصلى الجمعة بالناس فى يومها لعشر خلون من شوال

وحضهم فى خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم (لكم النصر ما صبرتم) ثم دخل حجرته ولبس عدته فظاهر بين درعين[1] وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره. ولما رأى ذوو الرأى من الانصار أن الاحداث استكرهوا الرسول على الخروج لاموهم وقالوا ردوا الامر لرسول الله فما أمر ائتمرنا فلما خرج عليه السلام قالوا يارسول الله نتبع رأيك فقال : ما كان لنبى لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن الحضير ، وخرج من المدينة بألف رجل. فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه السلام كتيبة كبيرة فسأل عنها فقيل هؤلاء حلفاء عبد الله ابن أبى من اليهود فقال إنا لا نستعين بكافر على مشرك وأمر بردهم لانه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطولى فى الخيانة. ثم استعرض الجيش فرد من استصغر وكان فيمن رد رافع بن خديج وسمرة بن جندب ثم أجاز رافعا لما قيل له انه رام فبكى سمرة وقال لزوج أمه :أجاز رسول الله رافعاً وردنى مع أنى أصرعه فبلغ رسول الله الخبر فأمرهما بالمصارعة فكان الغالب سمرة فأجازه. ثم بات عليه السلام محله ليلة السبت واستعمل على حرس الجيش محمد ابن مسلمة وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس. وفى السحر سار الجيش حتى إذا كان بالشوط وهو بستان بين أحد والمدينة رجع عبد الله بن أبى بثلاثمائة من أصحابه وقال: عصانى وأطاع الولدان فعلام نقتل أنفسنا فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر وقال ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم (قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ

---

(١) أى لبس درعا فوق درع وهما ذات الفضول وفضة التى أصابها من قينقاع

قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ) فقال له: أبعدكم الله فسيغني الله عنكم نبيه. ولما فعل ذلك عبد الله بن أبي همت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا: بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس فعصمهما الله وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين فقوم يقولون نقاتلهم وقوم يقول نتركهم، فأنزل الله في سورة النساء: (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً). ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد [1] وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة، أما المشركون فنزلوا ببطن الوادى من قبل أحد وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خالد وجعل آخرين أمام الباقين واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلا يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصارى فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال: ولا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا. ثم عدل عليه السلام الصفوف وخطب المسلمين وكان فيما قال: ألقى فى قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وان أبطأ عنها فاتقوا ربكم وأجملوا فى طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد اذا اشتكى تداعى له سائر جسده. ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير فقتله ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة فقتله عليّ فحمل اللواء أخوه عثمان

(١) جبل شمالى المدينة الشرقى

فقتله حمزة فحمله أخ لهما اسمه أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة بن أبي طلحة وكلهم يقتلون وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر يطلب البراز فأراد أبوه أن يبرز له ، فقال عليه السلام: متعنا بنفسك يا أبا بكر؛ ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون . ولما التقت الصفوف وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار تهييجا لعواطف الرجال ، وكان عليه السلام كلما سمع نشيد النساء يقول: (اللهم بك أجول وبك أصول وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل) .وفي هذه المعمعة قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء غافله وحشي وهو يجول في الصفوف وضربه بحربة لم تخطىء ثنايا بطنه .

هذا ،ولما قتل حملة اللواء من المشركين ولم يقدر أحد على الدنو منه ولوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويولولن وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب . فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا: مالنا في الوقوف من حاجة؛ ونسوا أمر السيد الحكيم صلى الله عليه وسلم فذكرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون . أما رئيسهم فثبت وثبت معه قليل منهم ،فلما رأى خالد ابن الوليد أحد رؤساء المشركين خلو الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش فقتل من ثبت من الرماة وأتي المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم، فلما رأو ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم

وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضا ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء وأشاع أن محمداً قد قتل فدخل الفشل في المسلمين حتى قال بعضهم: علام نقاتل اذا كان محمداً قد قتل؟ فارجعوا الى قومكم يؤمنوكم، وقال جماعة: اذا كان محمد قد قتل فقاتلوا عن دينكم. وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعة من المسلمين من بينهم الوليد بن عقبة وخارجة بن زيد ورفاعة بن المعلى وعثمان بن عفان وتوجهوا الى المدينة ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة منهم أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بجحفته وكان رامياً شديد الرمي فنثر كنانته بين يدي رسول الله وصار يقول: وجهي لوجهك فداء، وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه السلام: انثرها لأبي طلحة، وكان ينظر الى القوم ليرى ماذا يفعلون فيقول له أبو طلحة: يانبي الله بأبي أنت وأمي، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم! نحري دون نحرك. وممن ثبت سعد بن أبي وقاص فكان عليه السلام يقول له: أرم سعد افداك أبي وأمي. ومنهم سهل بن حنيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس. (ومنهم) أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري تترس على رسول الله فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه. (وكان) يقاتل عن الرسول زيادة بن الحارث حتى أصابت الجراح مقاتله فأمر به فأدنى منه ووسده قدمه حتى مات. وقد أصابه عليه السلام شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات

فقد أقبل أبى بن خلف يريد قتله فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه وقال: خلوا طريقه، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع؛ ولم يقتل رسول الله غيره لا فى هذه الغزوة ولا فى غيرها. (وكان) أبو عامر الراهب قد حفر حفرا وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع الرسول فى حفرة منها فأغمى عليه وخدشت ركبتاه فأخذ علىّ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله وهما ممن ثبت حتى استوى قائما فرماه عتبة بن أبى وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن أبى بلتعة فقتله، وشج وجهه عليه السلام عبد الله بن شهاب الزهرى وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتى المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة غضب الله عليه فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت فى ذلك ثنيتاه وقال حينئذ عليه السلام: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم؟ فأنزل الله فى سورة آل عمران (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) وكان أول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك الأنصارى فنادى: يامعشر المسلمين ابشروا، فأشار اليه الرسول أن اصمت. ثم سار بين سعد بن أبى وقاص وسعد بن عبادة يريد الشعب ومعه جمع منهم أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة، وأقبل عليه إذ ذاك عثمان ابن عبد الله بن المغيرة يقول: أين محمد لا نجوت ان نجا فعثر به فرسه ووقع فى حفرة فمشى اليه الحارث بن الصمة وقتله. ولما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم وكان علىّ يسكب الماء ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم. ثم أراد عليه السلام أن يعلو الصخرة

التى فى الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال: لاينبغى لهم أن يعلونا ، اللهم لاقوة لنا الا بك ثم أرسل اليهم عمر بن الخطاب فى جماعة فأنزلوهم (وقد) أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول فوجد بطلحة نيف وسبعون جراحة وشلت يده وأصاب كعب ابن مالك سبع عشرة جراحة . أما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم ستة من المهاجرين والباقون من الأنصار (ومن) المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ومن الأنصار حنظلة بن أبى عامر وعمرو بن الجموح وابنه خلاد بن عمرو وأخو زوجه والد جابر بن عبد الله فأتت زوج عمر وهند بنت حرام وحملتهم زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة فنهى عليه السلام عن الدفن خارج أُحد فرجعوا (وقتل) سعد بن الربيع وأرسل عليه السلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق فقيل له إن رسول الله يسأل عنك فقال لمبلغه :قل لقومى يقول لكم سعد ابن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة فوالله مالكم عندى عذر وقتل أنس بن النضر عم أنس بن مالك فانه لما سمع بقتل رسول الله قال ياقوم ماتصنعون بالبقاء بعده موتوا على مامات عليه اخوانكم فلم يزل يقاتل حتى قتل رضى الله عنه .ومثلت قريش بقتلى أحد حتى إن هندا زوج أبى سفيان بقرت بطن حمزة وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها وفعلوا قريباً من ذلك باخوانه الشهداء، ثم ان أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى

صوته نعمت فعال ان الحرب سجال يوم بيوم بدر وموعدكم بدر العام المقبل،
ثم قال انكم ستجدون فى قتلا كم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى . ثم ان المشركين
رجعوا الى مكة ولم يعرجوا على المدينة وهذا مما يدل على أن المسلمين لم
ينهزموا فى ذلك اليوم والا لم يكن بد من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا
على مدينتهم. ثم تفقد عليه السلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزنا شديدا
ودفن الشهداء كلهم بأحد كل شهيد بثوبه الذى قتل فيه وكان يدفن الرجلين
والثلاثة فى لحد واحد لما كان عليه المسلمون من التعب فكان يشق
عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة . ولما رجع المسلمون الى المدينة سخر
منهم اليهود والمنافقون وأظهروا ما فى قلوبهم من البغضاء وقالوا لاخوانهم
(لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَامَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)

وهذا الذى ابتلى به المسلمون درس مهم لهم يذكرهم بأمرين عظيمين
تركهما المسلمون فاصيبوا: أولهما طاعة الرسول فى أمره فقد قال للرماة لا
تبرحوا مكانكم ان نحن نصرنا أو قهرنا فعصوا أمره ونزلوا . الثانى
أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التى كثيرا ما تكون
سببا فى مصائب عظيمة وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا والتهوا بالغنائم حتى
عوقبوا ، وفى ذلك أنزل الله فى سورة آل عمران التى فصلت غزوة أحد
(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ
مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ

لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) فسبب هذا الابتلاء التنازع فينبغى الاتفاق ، والفشل فينبغى الثبات ، والعصيان فينبغى طاعة الرئيس. نسأل الله التوفيق .

غزوة حمراء الأسد

لما رجع عليه السلام الى المدينة أصبح حذراً من رجوع المشركين الى المدينة ليتمموا انتصارهم فنادى فى أصحابه بالخروج خلف العدو وأن لا يخرج إلا من كان معه بالأمس فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح فضمدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يحل فأعطاه على بن أبى طالب وولى على المدينة ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الأسد[1] وقد كان ماظنه الرسول حقا فان المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر فأصروا على الرجوع ولكن لما بلغهم خروج الرسول فى أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس وألقى الله الرعب فى قلوبهم فتمادوا فى سيرهم الى مكة وظفر عليه السلام وهم فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى من عليه ببدر بعد أن تعهد أن لا يكون على المسلمين فأمر بقتله ، فقال : يا محمد أقلنى وامنن على ودعنى لبناتى وأعطيك عهدا أن لا أعود لمثل ما فعلت؛ فقال عليه السلام: لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمداً مرتين لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، إضرب عنقه يا زيد فضرب عنقه ، وفى هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف

---

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة بطريق مكة

فان الرجل الذى لا يحترز مما أصيب منه ليس بعاقل فلا بد من الحزم لاقامة دعائم الملك .

حوادث

وفى هذه السنة زوج عليه السلام بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده ولذلك كان يسمى ذا النورين (وفيها) تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب وأمها أخت عثمان بن مظعون وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمى رضى الله عنه فتوفى عنها بجراحة أصابته ببدر وفيها تزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة الهلالية من بنى هلال بن عامر كانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم وكانت قبله تحت عبدالله بن جحش فقتل عنها بأحد وهى أخت ميمونة بنت الحارث لأمها وفيها ولد الحسين بن على رضى الله عنهما وفيها حرمت الخمر ، وكان تحريمها بالتدريج لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها فيصعب اذاً تحريمها دفعة واحدة ، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها ، لأن المنكر اذا أسند تحريمه لحادثة أقر الجميع على تقبيحها كان ذلك أشد تأثيراً فى النفس . فأول ما بين فيها قوله تعالى فى سورة البقرة (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ومنفعة الخمر تقوية الجسم ، ولما شربها بعض المسلمين وخلط فى القراءة حرمت الصلاة على السكران ، فقال تعالى فى سورة النساء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ

وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) ، ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم حرمت قطعيا بقوله تعالى فى سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ[١] وَالْأَزْلَامُ[٢] رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) وقد أجاب المسلمون على ذلك بقولهم: انتهينا، فليجب المسلمون الآن .

السنة الرابعة

فى بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله أن طليحة وسلمة بنى خويلد الأسديين يدعوان قومهما بنى أسد لحربه عليه السلام فدعا أباسلمة بن عبد الأسد المخزومى وعقد له لواء وقال له : سر حتى تنزل أرض بنى أسد بن خزيمة فأغر عليهم،وأرسل معه رجالا فسار فى هلال المحرم حتى بلغ قطناً[٣] فأغار عليهم فهربوا عن منازلهم ووجد أبو سلمة إبلا وشاء فأخذها ولم يلق حربا ورجع بعد عشرة أيام من خروجه (وفى) بدئها أيضا بلغه عليه السلام أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى المقيم بعرنة[٤] يجمع الجموع لحربه فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهنى وحده ليقتله فاستأذن رسول الله صلى

(١) هى حجارة تصب عليها دماء الذبح وتعبد (٢) هى القداح التى كانوا يستقسمون بها وفى قرن الخمر والميسر بالانصاب والازلام نهاية التنفير، ولذلك قال عليه السلام: شارب الخمر كعابد الوثن.

(٣) جبل لبنى أسد بناحية فيد شرقى المدينة (٤) موضع قريب من عرفات

الله عليه وسلم أن يتقول حتى يتمكن فأذن له وقال : انتسب لخزاعة فخرج لخمس خلون من المحرم ، ولما وصل اليه قال له سفيان : ممن الرجل ؟ قال : من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك ، فقال له : أجل انى لفى الجمع له ، فمشى عبد الله معه وحدثه وسفيان يستحلى حديثه، فلما انتهى إلى خبائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبد الله حتى نام فقام وقتله ثم ارتحل حتى أتى المدينة ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال .

سرية

وفى صفر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيونا على قريش مع رهط عضل والقارة الذين جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون من يفقههم فى الدين وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى اذا كانوا بالرجيع[1] غدر بهم أولئك الرهط ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى كان قتله عبد الله بن أنيس فنفروا اليهم فيما يقرب من مائتى رام واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم فلما أحس بهم رجال السرية لجأوا إلى جبل هناك فقال لهم الأعداء انزلوا ولكم العهد أن لا نقتلكم فنزل إليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم وقاتلهم الباقون ومعهم عاصم غير راضين بالنزول فى ذمة مشرك . ولما رأى الثلاثة الذين سلموا عين الغدر امتنع أحدهم فقتلوه ، وأما الاثنان فباعوهما بمكة ممن كان له ثار عند المسلمين وهناك قتلا . وقد قال أحدهما وهو خبيب بن عدى حين أرادوا قتله.

(١) ماء لبنى هذيل بين مكة وعسفان

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

سرية

فى صفر وفد على رسول الله أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو من رءوس بنى عامر فدعاه عليه السلام الى الاسلام فلم يسلم ولم يبعد بل قال: انى أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ولو بعثت معى رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام: إنى أخشى عليهم أهل نجد، فقال أبو عامر: أنا لهم جار. فأرسل معه المنذر بن عمرو وفى سبعين من أصحابه كانوا يسمون القراء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن فساروا حتى نزلوا بئر معونة [١] فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيد بنى عامر ، فلما وصل إليه لم يلتفت الى الكتاب بل عدا على حرام فقتله ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بنى عامر فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم وهم رعل وذكوان وعصية فأجابوه وذهبوا معه حتى اذا التقوا بالقراء أحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعاً لقلة عددهم وكثرة عدوهم ولم ينج إلا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم وعمرو بن أمية كان فى سرح القوم. وأبلغ عليه السلام خبر القراء فخطب فى أصحابه ، وكان فيما قال : (إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم وانهم قالوا ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضى

(٢) شرقى المدينة بين ارض بنى عامر وحرة بنى سليم

عنا) وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع فى يوم واحد فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً فى الصلاة

غزوة بنى النضير

يالله ما أسوأ عاقبة الطيش فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم وهذا ماحصل ليهود بنى النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر ولكن بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغيا فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض من أصحابه فى ديار بنى النضير إذ ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو فاطلع عليه السلام على قصدهم فرجع وتبعه أصحابه ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم: اخرجوا من بلادى فقد هممتم بما هممتم من الغدر (إذ الحزم كل الحزم أن لا يتهاون الانسان مع من عرف منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم اخوانهم المنافقون يقولون لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ) ولكن اليهود طمعوا

بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء فأمر عليه السلام بالتهيؤ لقتالهم فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وأعطى رايته عليا أما بنو النضير فتحصنوا فى حصونهم وظنوا انها مانعتهم من الله فحاصرهم عليه السلام ست ليال، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون أدعى إلى تسليمهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب ولم يروا من عبد الله بن أبى مساعدة بل خذلهم كما خذل بنى قينقاع من قبلهم فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ما حملت الابل من أموالهم إلا آلة الحرب ففعل وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون. ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر ومنهم أكابرهم حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام وأسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وأبو سعد ابن وهب. ولم يخمس رسول الله ما أخذ من بنى النضير فانه فىء لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، ومثل هذا يكون لمعدات الحرب وللرسول يطعم منه أهله ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كما قال تعالى فى سورة الحشر (مَا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) فأعطى عليه السلام من هذا الفىء فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وردوا لاخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم وأخذ عليه السلام أرضا يزرعها ويدخر منها قوت أهله عاماً

غزوة ذات الرقاع

وفى ربيع الآخر بلغه عليه السلام أن قبائل من نجد يتهيأون لحربه وهم بنو محارب وبنو ثعلبة فتجهز لهم وخرج فى سبعمائة مقاتل وولى على المدينة عثمان بن عفان، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذهن فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرقوا فى رؤوس الجبال ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا للحرب فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضا ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه السلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلون صلى بالمسلمين صلاة الخوف فألقى الله الرعب فى قلوب الأعداء وتفرقت جموعهم خائفين منه صلى الله عليه وسلم.

ومال الامام البخارى إلى أن هذه الغزوة كانت فى السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه

غزوة بدر الآخرة

لما أهلّ شعبان هذا العام كان موعد أبى سفيان فانه بعد انقضاء غزوة أحد قال للمسلمين: موعدنا بدر العام المقبل، فأجابه الرسول إلى ذلك وكان بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة فى شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً فلما حل الأجل وقريش مجدبون، لم يتمكن أبوسفيان من الايفاء بوعده فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يوسم بخلف الوعد فاستأجر نعيم ابن مسعود الأشجعى فيأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبوسفيان من الجموع العظيمة فقدم نعيم المدينة وقال للمسلمين (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ولم يلتفت عليه السلام لهذا الأرجاف اتكالا على ربه بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه واستخلف على المدينة عبدالله بن عبد الله بن أبيّ ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً فلم يجدوا بها أحداً لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ظاناً أن إرجاف نعيم يفيد فيكون المخلف هم المسلمون فسار حتى أتى مجنة وهى سوق معروفة من ناحية مر الظهران. فقال لقومه إن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب فارجعوا، أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركهم فى تجارته أحد (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لأبى سفيان قد والله نهيتك أن تعد القوم قد اجترأوا علينا ورأوا أنا أخلفناهم

حوادث

وفى هذا العام ولد الحسين بن على وفيه توفيت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين وفيه توفى أبو سلمة رضى الله عنه ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاعة وأول من هاجر إلى الحبشة وفيه تزوج عليه السلام أم سلمة هنداً زوج أبى سلمة بعد وفاته.

السنة الخامسة — غزوة دومة الجندل[1]

فى ربيع الأول من هذا العام بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين طيبة خمس عشرة ليلة

الأعراب بدومة الجندل يظلمون من مر بهم وأنهم يريدون الدنو من المدينة فتجهز لغزوتهم وخرج فى ألف من أصحابه بعد أن ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم فلما بلغهم الخبر تفرقوا فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم فأصيب من أصيب وهرب من هرب ثم نزل بساحتهم فلم يلق أحدا وبث السرايا فلم يجد منهم أحداً فرجع عليه السلام غانماً وصالح وهو عائد عيينة بن حصن الفزارى وهو الذى كان يسميه عليه السلام الأحمق المطاع لأنه كان يتبعه ألف قناة وأقطعه عليه السلام أرضاً يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة لأن أرضه كانت قد أجدبت.

غزوة بنى المصطلق

فى شعبان بلغه عليه السلام أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق. الذين ساعدوا قريشا على حرب المسلمين فى أحد يجمع الجموع لحربه فخرج له عليه السلام فى جمع كثير وولى على المدينة زيد بن حارثة وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط فى غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا، وفى أثناء مسيره عليه السلام التقى بعين بنى المصطلق فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله. ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجىء المسلمين لحربه وأنهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفا شديداً حتى تفرق عنه بعضهم، ولما وصل المسلمون إلى المريسيع (١) تصاف الفريقان للقتال بعد أن عرض عليهم الاسلام فلم

(١) ماء لخزاعة على يوم من الفرع

يقبلوا فتراموا بالنبل ساعة ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالا للهرب بل قتلوا عشرة منهم وأسراو باقيهم مع النساء والذرية واستاقوا الابل والشياه، وكانت الابل ألفى بعير والشياه خمسة آلاف استعمل الرسول على ضبطها مولاه شقران وعلى الاسرى بريدة. وكان فى نساء المشركين بريرة بنت الحارث سيد القوم وقد أخذ من قومها مئتا بيت أسرى وزعت على المسلمين وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم فان بنى المصطلق من أعز العرب دارا فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جدا فأراد عليه السلام أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج بريرة بنت الحارث التى سماها جويرية فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا ينبغى أسرهم فى أيدينا فمنوا عليهم بالعتق، فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضى الله عنها وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم .وقد حصل فى هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعادتا بالتفريق على المسلمين (فأولاهما) أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الأجير بالمهاجرين فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال : ما بال دعوى الجاهلية؟ (وهى مايقال فى الاستغاثة يالفلان) فأخبر الخبر، فقال : دعوا هذه الكلمة فانها منتنة ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة. فلما بلغ عبدالله بن أُبَىّ هذا الخصام

غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت كاليوم مذلة أو قد فعلوها؟ نافرونا فى ديارنا والله مانحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك، أما والله (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) ، ثم التفت إلى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا، فلاتنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده،وكان فى مجلسه شاب حديث السن قوى الاسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه وقال يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ماقلت،فقال والله يارسول الله لقد سمعته.قال : لعله أخطأ سمعك فاستأذن عمر الرسول فى قتل ابن أبَيّ أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ثم أذن بالرحيل فى وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التكلم فى هذا الموضوع فجاءه أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال فى هذا الوقت ؟ فقال : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ :زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : أنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم سار عليه السلام بالناس سيراً حثيثاً حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً وكلم رجال من الأنصار عبد الله بن أبَيّ فى أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوى

رأسه واستكبر . وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التى فضحت عبد الله ابن أبى وإخوانه وصدقت زيد بن أرقم ، ولما بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله ابن أبى استأذن رسول الله فى قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد، فأمره عليه السلام بالاحسان الى أبيه .

حديث الأفك

(النادرة الثانية) وهى أفظع من الأولى وأجلب منها للمصائب وهى رمىُ عائشة الصديقية زوج رسول الله بالأفك فاتهموها بصفوان بن المعطل السلمى وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه السلام ليلة بالرحيل وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش فلما قضت شأنها أقبلت الى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لأن النساء كن إذ ذاك خفافاً لم يغشهن اللحم فلم يستنكر القوم خفة الهودج وكانت عائشة جارية حديثة السن فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها وليس بالمنزل داع ولا مجيب فغلبتها عيناها فنامت وكان الذى يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة . ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا فى عائشة وصفوان ، والذى تولى

كبر الافك عبدالله بن أبى ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الافك وهى لا تشعر بشىء ، وكانت تعرف فى رسول الله رقة إذا مرضت فلم يعطها نصيبا منها فى هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله : كيف حالكم ؟ مما جعلها فى ريب عظيم ، فلما نقهت خرجت هى وأم مسطح بن أثاثة أحد أهل الافك للتبرز خارج البيوت فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح! فقالت عائشة : بئس ما قلت !! أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ فقالت يا هنتاه أولم تسمعى ماقالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر فازدادت مرضا على مرضها . ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض فى بيت أبيها فأذن لها فسألت أمها عما يقول الناس فقالت يا بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقالت عائشة سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا !! وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وفى خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة : أهلك أهلك ولا نعلم عليهم إلا خيراً ، وقال على بن أبى طالب : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك . فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة وقال لها :هل رأيت من شىء يريبك ؟ فقالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله . فقام عليه السلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال: من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى

والله ما علمت على أهلى إلا خيراً ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلى إلا معى. فقال سعد بن معاذ أنا يا رسول الله أعذرك منه فان كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة الخزرجى وقال : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أنه يقتل ، فقام أسيد بن حضير، وقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين . وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا ، أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وبينما هى مع أبويها اذ دخل النبى عليه السلام فسلم ثم جلس فقال: أما بعد ياعائشة انه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه ، فتقلص دمع عائشة وقالت لابويها: أجيبا رسول الله، فقالا: والله ما ندرى ما تقول، فقالت: إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم انى بريئة لاتصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حيث قال (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقية (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَاتَحْسَبُوهُ

شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ. لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَالَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فسرى عن رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة فقالت لها أمها قومى واشكرى رسول الله، فقالت لا والله، لا أشكر إلا الله الذى برأنى . وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرح بالافك ثمانين

جلدة وهى حد القاذف وكانوا ثلاثة حمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت . وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه فلما تكلم بالافك قطع عنه النفقة فأنزل الله (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُور رَّحِيمٌ) ؟ فقال أبو بكر بل نحب ذلك يارسول الله ، وأعاد النفقة على مسطح. فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن فتى رأوا باباً لها ولجوه فنعوذ بالله منهم .

غزوة الخندق

لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وارث المسلمين لها بل كان فى نفوسهم دائما أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم إلى مكة وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ومنوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولا لما طلبوه، ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم ارتياحا فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة العبدرى وعددهم أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف بعير. وتجوزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن الذى جازى إحسان رسول الله كفرا فانه كما قدمنا أقطعه أرضا يرعى فيها سوائمه حتى إذا سمن خفه

وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس. وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المرى وهم أربعمائة وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رخيلة وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس ، وهم سبعمائة وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان. ولما بلغه عليه السلام أخبار هاته التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيمكث بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه فأمر عليه السلام المسلمين بعمله وشرعوا فى حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية ، وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها .أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل وعمل معهم عليه الصلاة والسلام فكان ينقل التراب متمثلا بشعر ابن رواحة

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وان أرادوا فتنة أبينا

وأقام الجيش فى الجهة الشرقية مسنداً ظهره إلى سلع وهو جبل مطل على المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة. أما قريش فنزلت بمجمع الأسيال ، وأما غطفان فنزلت جهة أحد وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التى لم

تكن العرب تعرفها فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل. ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق منهم عكرمة بن أبى جهل وعمرو بن ود. وآخرون وقد برز على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لعمرو بن ود فقتله وهرب إخوانه وهوى فى الخندق نوفل بن عبد الله فاندقت عنقه (ورمى) سعد بن معاذ رضى الله عنه بسهم قطع أكحلة وهو شريان الذراع واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوما كاملا حتى فاتت المسلمين صلاة ذلك اليوم وقضوها بعد، وجعل عليه السلام على الخندق حراساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل وكان يحرس بنفسه ثلمة فيه مع شدة البرد، وكان عليه السلام يبشر أصحابه بالنصر والظفر ويعدهم الخير. أما المنافقون فقد أظهروا فى هذه الشدة ما تكنه ضمائرهم حتى قالوا (مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُورًا) وانسحبوا قائلين إن بيوتنا عورة نخاف أن يغير عليها العدو (وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إن يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا) واشتدت الحال بالمسلمين فان هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة، والذى زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بنى قريظة الذين يساكنونهم فى المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود، وسبب ذلك أن حيى بن أخطب سيد بنى النضير المجلين توجه الى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وكان له كالشيطان اذ قال للانسان اكفر فحسن له نقض العهد ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين، ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل مسلمة بن أسلم فى مائتين وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفا على النساء والذرارى وأرسل الزبير بن العوام يستجلى له الخبر

فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر ونالوا من رسول الله والمسلمين أمامه، فرجع وأخبر الرسول بذلك. وهنالك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون وتكلم المنافقون بما بدالهم، فأراد عليه السلام أن يرسل لعيينة بن حصن ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان فأبى الأنصار ذلك قائلين انهم لم يكونوا ينالون منا قليلا من ثمرنا ونحن كفار أفبعد الاسلام يشاركوننا فيها؟! واذا أراد الله العناية بقوم هيأ لهم أسباب الظفر من حيث لايعلمون. فانظر الى هذه العناية من الله بالمتمسكين بدينه القويم. جاء نعيم بن مسعود الاشجعى وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان فقال: يارسول الله انى قد اسلمت وقومى لايعلمون باسلامى فرنى بأمرك حتى أساعدك. فقال أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة.

الخدعة فى الحرب

نخرج من عنده وتوجه الى بنى قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم فقال: يابنى قريظة تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم وانى محدثكم حديثا فاكتموه عنى، قالوا: نعم، فقال: لقد رأيتم ماوقع لبنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم وإن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فهم اذا رأوا فرصة انتهزوها والا انصرفوا لبلادهم. وأما أنتم فتسا كنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه

وحدكم فأرى أن لا تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان انهم لن يتركوكم ويذهبوا الى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفا منهم، فاستحسنوا رأيه وأجابوه الى ذلك. ثم قام من عندهم وتوجه الى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم وإنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى، قالوا: نفعل، فقال لهم: إن بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، فقالوا له أيرضيك أن نأخذ جمعا من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذى كسرت (يريد بنى النضير) غرضى بذلك منهم. وهاهم مرسلون اليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً. ثم أتى غطفان فاخبرهم بمثل ما أخبر به قريشا فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غداً فاجابوا أنا لا يمكننا أن نقاتل فى السبت (وكان ارساله لهم ليلة سبت) ولم يصبنا ما أصابنا الا من التعدى فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا الى بلادكم فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود وتفرقت القلوب نخاف بعضهم بعضا، وكان عليه السلام قد ابتهل الى الله الذى لا ملجأ الا إليه ودعاه بقوله (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الاحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم) وقد أجاب الله دعاه عليه السلام فأرسل على الأعداء ريحاً باردة فى ليلة مظلمة نخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم فى الليلة المدلهمة. فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح.

ولما سمع عليه السلام الضوضاء فى جيش العدو، قال لأصحابه: لابد من حادث، فمن منكم ينظر لنا خبر القوم، فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً.

وكان فيهم حذيفة بن اليمان ، فقال عليه السلام : تسمع صوتى منذ الليلة ولا تجيب ! فقال : يارسول الله البرد شديد ، فقال : اذهب فى حاجة رسول الله وا كشف لنا خبر القوم ، فخاطر رضى الله عنه بنفسه فى خدمة نبيه حتى اطلع على جلية الخبر ، وأن الأعداء عازمون على الرحلة

هزيمة الأحزاب

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو وقد حل عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل ، فقال له صفوان بن أمية انك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد فى جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لايدهموا من ورائهم وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى تحزب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منة منه وفضلا لساءت الحال . وكان جلاء الأحزاب فى ذى القعدة وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله فى سورة الأحزاب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَار وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ

يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا)

غزوة بنى قريظة

ولما رجع عليه السلام بأصحابه وأراد أن يخلع لباس الحرب أمره الله باللحوق ببنى قريظة حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم فى شدة فقال لأصحابه : لا يصلين أحد منكم العصر الا فى بنى قريظة فساروا مسرعين وتبعهم عليه السلام راكبًا على حماره ولواؤه بيد على بن أبى طالب وخليفته على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف ، وقدأدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر فى الطريق فصلاها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ولم يصلها الآخرون إلا فى بنى قريظة بعد مضى وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يعنف فريقا منهم . (ولما) رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب فى قلوبهم وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة وهى الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ولكن أنى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم ، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب ، وأنهم ان استمروا على ذلك ماتوا جوعا طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على مانزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم فطلبوا أن يجلوا بانفسهم من غير سلاح فلم يرض أيضا بل قال

لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً ، فقالوا له : أرسل لنا أبالبابة نستشيره وكان أوسياً من خلفاء قريظة له بينهم أولاد وأموال فلما توجه اليهم استشاروه فى النزول على حكم الرسول . فقال لهم : أنزلوا وأومأ بيده إلى حلقه يريد أن الحكم الذبح، ويقول أبو لبابة : لم أبارح موقفى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلامن مقابلة رسول الله وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد حتى يقضى الله فيه أمره . ولما سأل عنه عليه السلام أُخبر بما فعل ، فقال : أما لو جاءنى لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه . ثم إن بنى قريظة لما لم يروا بداً من النزول على حكم رسول الله فعلوا ، فأمر برجالهم فكتفوا فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بنى قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج ،فقال لهم : ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا نعم . واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذى كان جريحا من السهم الذى أصيب به فى الخندق ، وكان مقيما بخيمة فى المسجد معدة لمعاملة الجرحى فأرسل عليه السلام من يأتى به ، فحملوه على حماره والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له : أحسن فى مواليك ألا ترى مافعل ابن أُبَىّ فى مواليه ؟ فقال رضى الله عنه : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم . ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس ، قال عليه السلام : قوموا الى سيدكم فأنزلوه ،ففعلوا وقالوا له: إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. وقال له الرسول : احكم فيهم يا سعد فالتفت سعد للناحية التى ليس فيها رسول الله وقال : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟فقالوا نعم

فالتفت إلى الجهة التى فيها الرسول وقال : وعلى من هنا كذلك؟ وهو غاض طرفه إجلالا فقالوا نعم ، قال : فانى أحكم أن تقتلوا الرجال وتسبوا النساء والذرية . فقال عليه السلام : (لقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد) لأن هذا جزاء الخائن الغادر. ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم وجمعت غنائمهم ، فكانت ألفا وخمسمائة سيف وثلثمائة درع وألفى رمح وخمسمائة ترس وجحفة ووجد أثاثا كثيرا وآنية وأجمالا نواضح وشياها فخمس ذلك كله مع النخل والسبى للراجل ثلث الفارس وأعطى النساء اللاتى يمرضن الجرحى ووجد فى الغنيمة جرار خمر فأريقت. وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضى الله عنه وأرضاه ، كان فى الأنصار كأبى بكر فى المهاجرين . وقد كان له العزم الثابت فى جميع المشاهد التى تقدمت الخندق ، وكان عليه السلام يحبه كثيراً وبشره بالجنة على عظيم أعماله (وعقب) رجوع المسلمين إلى المدينة تاب الله على لبابة بقوله : (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وقد عاهد الله أن يهجر ديار قريظة التى حصلت فيها هذه الزلة . وبتمام هذه الغزوة أراح المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب . وسيأتى للقارىء قريبا اليوم الذى يعاقبون فيه .

زواج زينب بنت جحش

وفى هذا العام تزوج عليه السلام زينب بنت جحش وأمها أميمة عمته

بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانها فى الشرف العظيم ، فان العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ويعتقدون أن لا كفء من سواهم لبناتهم ، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف ، فلما نزل قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أمراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً) . لم يروا بداً من القبول . فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها مالم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها الى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك . ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسما لهذا الشقاق من جهة وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب له فى زواجه بزوج ابنه ، فقال لزيد: أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى فى نفسه ماأبداه الله فبت الله حكمه بابطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المتبنى بقوله فى سورة الأحزاب (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً) ثم إن الله حرم التبنى على المسلمين لما فيه من الاضرار وأنزل فيه فى سورة الأحزاب (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً) ومن هذا الحين صار

اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد بن محمد) وأبدل بذلك أن ذكر اسمه فى قرآن يتلى على مر الدهور والأعوام : يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالا لاتجوز الا ممن ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول فانهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارةزيد فرأى زوجه مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنهافوقعت فى قلبه ، فقال : سبحان الله، فلماجاءزوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك الخ . وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وأسلمت قديما ورسول الله بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على اسلامها نحو عشر سنوات وهى بنت عمته إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة ورسول الله هو الذى زوجها زيداً فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك . ومن منايتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه أنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله فى سورة الحجر المكية (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) وفى سورة طه المكية أيضاً (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر الى زوجه مصادفة ثم يشتهى زواجها؟إن هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا . ولو حدث أمر مثل من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقاً وأبعدهم عن الدنايا وأشدهم ذكاءوفراسته حتى مدحه الله بقوله فى سورة ن (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

عَظِيم) لاشك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق وضعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم، والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل، فلم تبق شبهة فى أن الحقيقة ما نقلناه لك أولا ، وهو الذى يستفاد من القرآن الشريف قال تعالى فى سورة الاحزاب (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ . فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً) .والذى أبداه الله هو زواجه بها ولم يبد غير ذلك وهذا القرآن أعظم شاهد

الحجاب

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبه ويذكره كثيراً ويود أن ينزل فيه قرآن وكان يقول لوأطاع فيكن مارأتكن عين فنزل فى سورة الأحزاب (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) فقال بعضهم :أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد لأتزوجن عائشة ! فنزل بعد الآية المقدمة (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً) أما غير أزواجه عليه

السلام من المؤمنات فأمرن بغض الأبصار وحفظ الفروج كما أمر بذلك الرجال وأمرن أن لايبدين زينتهن للأجانب الا ماظهر منها كالخاتم فى الأصبع والخضاب فى اليد والكحل فى العين أما ماخَفى منها فلا يحل إبداؤه كالسوار للذراع والدملج للعضد والخلخال للرجل والقلادة للعنق والاكليل للرأس والوشاح للصدر والقرط للأذن . والمرادبالزينةالظاهرة والخفية موضعها وأمرن أيضاً بان يضربن بخمرهن على الجيوب كيلا تبقى صدورهن مكشوفة فان النساء اذ ذاك كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن ونهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهن ذوات خلخال . واذا كان النهى عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهينا عن اظهار الحلى علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ قال تعالى فى سورة النور (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وكان النساء فى أول الاسلام كما كن فى الجاهلية

متبذلات تبرز المرأة فى درع وخمار لافرق بين الحرة والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للاماء اذا خرجت بالليل الى مقاضى حوائجهن فى النخيل والغيطان وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة يقولون حسبناها أمة فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الاماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليغطى الوجه والاعطاف ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع قال تعالى فى سورة الأحزاب (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أما حجب المرأة عمن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يفعل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا فى عهد السلف الصالح فان الشارع الحكيم سن ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين فى أمر أجمع عليه أئمة الدين. قال حجة الاسلام الغزالى فى الاحياء (وقد ندب الشرع الى مراعاة أسباب الالفة ولذلك استحب النظر فقال اذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينهما أى يؤلف بينهما من وقوع الادمة على الادمة وهى الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة وانما ذكر ذلك للمبالغة فى الائتلاف وقال عليه السلام (ان فى أعين الانصار شيئاً فاذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر اليهن) قيل كان فى أعينهن عمش وقيل صغر. وكان بعض الصالحين لاينكحون كرائمهم الا بعد النظر احترازا من الغرور وقال الاعمش كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم ولا يبعد أن

يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التى تسوق الى مكارم الأخلاق قد حسنا عند عامة المسلمين فى العصور الأولى حجب المرأة مطلقا حسما للمفاسد ودرءا للفتنة

فرض الحج

وفى هذا العام على ماعليه الأكثرون فرض الله على الأمة الاسلامية حج البيت من استطاع اليه سبيلا ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار فيتجهوا الى الله ويبتهلوا اليه أن يؤيدهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم وفى ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب مافيه للمسلمين الفائدة العظمى

السنة السادسة

(سرية)

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة أرسل عليه السلام محمد بن مسلمة فى ثلاثين راكبا لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضرية[1] فسار اليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم فاستاقت السرية النعم والشياه وعادوا راجعين الى المدينة وقد التقوا وهم عائدون بثمامة بن أثال الحنفى من عظماء بنى حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه فلما أتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق فانه أطلق أساره بعد ثلاث أبى فيها الانقياد للاسلام بعد أن

---

(١) موضع على سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة

عرض عليه . ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك دينا عماده المحامد فرجع الى رسول الله وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله (يامحمد والله ما كان على الارض من وجه أبغض الى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها الى والله ما كان على الارض من دين أبغض الى من دينك فقد أصبح أحب الدين كله الى والله ما كان من بلد أبغض الى من بلدك فقد أصبح أحب البلاد الى) فسر عليه السلام كثيرا باسلامه لان من ورائه قوما يطيعونه . ولما رجع ثمامة الى بلاده مربمكة معتمرا وأظهر فيها اسلامه فأرادت قريش ايذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثمامة فتركوه ، ومع ذلك فقد حلف هو أن لايرسل اليهم من اليمامة حبوبا حتى يؤمنوا فجهدوا جداً ولم يروا بداً من الاستغاثة برسول الله فعاملهم عليه السلام بما جبل عليه من الشفقة والمرحمة وأرسل لثمامة أن يعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل. وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة فى الاسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتد أكثر أهل بلاده فكان ينهى قومه عن اتباع مسيلمة ويقول لهم إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه فثبت معه كثير من قومه رضى الله عنه

غزوة بن لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت واخوانه ولم يزل رسول الله حزينا عليهم متشوقا للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة

فأمر أصحابه بالتجهز ولم يظهر لهم مقصده كما هى عادته عليه السلام فى غالب الغزوات لتعمى الأخبار عن الاعداء وولى على المدينة ابن أم مكتوم وسار فى مائتى راكب معهن عشرين فرسا ولم يزل سائرا حتى مقتل أصحاب الرجيع فترحم عليهم ودعا لهم ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا فى الجبال فأقام عليه السلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحدا ثم أرسل بعضا من أصحابه ليأتوا عسفان [1] حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب فذهبوا الى كراع الغميم [2] ثم رجع عليه السلام الى المدينة وهو يقول (آيبون تائبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال)

غزوة الغابة

كان للنبى عليه السلام عشرون لقحة ترعى بالغابة [3] فأغار عليها عيينة ابن حصن فى أربعين راكبا واستلبها من راعيها فجاءت الاخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام والذى بلغه هو سلمة بن الأكوع أحد رماة الانصار وكان عداء فأمره الرسول بأن يخرج فى أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون فخرج يشتد فى أثرهم حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل فاذا وجهت الخيل نحوه رجع هاربا فلا يلحق فاذا دخلت الخيل بعض المضايق

---

(١) موضع قرب مكة

(٢) جبل جنوب عسفان بثمانية أميال

(٣) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان

علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقو كثيرا مما بأيديهم من الرماح والابراد ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش فان الرسول دعا أصحابه فأجابوه وأول من انتهى اليه المقداد بن الأسود فقال له اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك وأعطاه اللواء فخرج وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان واستنقذ المسلمون غالب اللقاح وهرب أوائل القوم بالبقية ،وطلب سلمة ابن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة فى أثر القوم ليأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم فقال له عليه السلام (ملكت فأسجح) ثم رجع بعد خمس ليال

سرية

كان بنوا أسد الذين مر ذكرهم كثيرا ما يؤذون من يمر بهم من المسلمين فأرسل لهم عليه السلام عكاشة بن محصن فى أربعين راكبا ليغير عليهم ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا وهناك وجدوا رجلا نائما فأمنوه ليدلهم على نعم القوم فدلهم عليها فاستاقوها وكانت مائة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً

سرية

وفى ربيع الأول بلغه عليه السلام أن من بذى القصة [1] يريدون الاغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء [2] فأرسل لهم محمد بن مسلمة

(١) موضع على أربعة وعشرين ميلا من المدينة فى طريق الربذة

(٢) موضع قرب المدينة

فى عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلا وقد كمن المشركون حينما عاموا بهم فنام المسلمون ولم يشعروا الا والنبل قد خالطهم فتواثبوا على أسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قتل فعاد الى المدينة وأخبر الرسول عليه السلام فأرسل أبا عبيدة عامر ابن الجراح فى ربيع الآخر ليقتص من الأعداء فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نعمهم ورجع

سرية

عاكس بنو سليم الذين كانوا من المتحزبين فى غزوة الخندق المسلمين فى سيرهم فأرسل عليه السلام زيد بن حارثة فى ربيع الآخر ليغير عليهم فى الجموم [١] فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بنى سليم فأصابوا بهائما وشاء ووجدوا رجالا أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك الى المدينة فذهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها.

سرية

بلغ الرسول أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة فأرسل لها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكباً ليعترضها فأخذها وما فيها وأسر من معها من الرجال وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالا وأمانة فاستجار بزوجه زينب

---

(١) ناحية من بطن نخل

فأجارته و نادت بذلك فى مجمع قريش فقال عليه السلام (المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت) وهذا أبلغ ما قيل فى المساواة بين أفراد المسلمين ورد عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً فذهب الى مكة فأدى لكل ذى حق حقه ورجع الى المدينة مسلما فرد عليه رسول الله زوجه .

سرية

وفى جمادى الآخرة أرسل عليه السلام زيد بن حارثة فى خمسة عشر رجلا للاغارة على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم مقيمون بالطرف [1] فتوجهت السرية لذلك ولما رآهم الأعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم فاستاقها المسلمون ورجعوا الى المدينة بعد أربع ليال .

سرية

وفى رجب أرسل عليه السلام زيد بن حارثة ليغير على بنى فزارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه فلما جاء المدينة وأخبر الرسول الخبر أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين فى وادى القرى [2] فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعا كثيرا وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة فاستوهبها عليه السلام ممن أسرها وفدى بها أسيرا كان بمكة

---

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلا من المدينة فى طريق العراق (٢) موضع شمالى المدينة

سرية

وفى شعبان أرسل عليه السلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعماية من الصحابةلغزو بنى كلب فىدومة الجندل[١] وقد وصاهم عليه السلام قبل السفر بقوله (أغزوا جميعا فى سبيل الله فقاتلن من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم) ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو فدعوهم إلى الاسلام ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو النصرانى وأسلم معه جمع من قومه وبقى آخرون راضين باعطاء الجزية فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم كما أمره بذلك عليه السلام وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الود بين الأمراء بحيث يهم كلا مايهم الآخر فنعما هى سياسة السلم والمحبة

سرية

وفى شعبان أرسل عليه السلام على بن أبى طالب فى مائة لغزو بنى سعد بن بكر بفدك[٢] لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر فسارت السرية. وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو وأرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها فطلبوا منه أن يدلهم على القوم وهو آمن فدلهم على موضعهم فاستاق منه المسلمون نعم القوم وهرب الرعاة فحذروا قومهم فداخلهم الرعب وتفرقوا

---

(١) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليال وبين المدينة خمس عشرة ليلة

(٢) قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر

فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاة ورد الله كيد المشركين فلم يعدوا اليهود بشيء

قتل أبى رافع

وكان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين وهو سيدهم أبو رافع سلام بن أبى الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز لما كان له من المهارة فى التجارة وكان ذا ثروة طائلة يقلب بها قلوب اليهود كما يريد فانتدب له عليه السلام من يقتله فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبدالله بن عتيك ليكون لهم مثل أجر اخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فان من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله فلا تعمل الأوس عملا إلا اجتهد الخزرج فى مثله فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصاهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة فساروا حتى أتوا خيبر فقال عبدالله لأصحابه مكانكم فانى منطلق للبواب ومتلطف له لعلى أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوب كأنه يقضى حاجته وقد دخل الناس فهتف به البواب أدخل ياعبد الله إن كنت تريد الدخول فانى أريد أن أغلق الباب فدخل وكمن حتى نام البواب فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل له الهرب ثم توجه إلى بيت ابى رافع وصار يفتح الأبواب التى توصل اليه وكلما فتح بابا أغلقه من داخل حتى انتهى اليه فاذا هو فى بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه فنادى ياأبا رافع قال من فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً، وعند ذلك قالت امرأته : هذا صوت

ابن أبى عتيك ، فقال لها : ثكلتك أمك وأين ابن أبى عتيك الآن ؟ فعاد عبد الله للنداء مغيراً صوته قائلا : ما هذا الصوت الذى نسمعه ياأبا رافع ؟ قال لأمك الويل إن رجلا فى البيت ضربنى بالسيف ، فعمد اليه فضربه أخرى لم تغن شيئا فتوارى ثم جاءه كالمغيث وغير صوته فوجده مستلقيا على ظهره فوضع السيف فى بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفا فوقع من فوق السلم فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ثم انطلق إلى أصحابه وقال النجاة قتل والله أبو رافع فانتهوا إلى الرسول فحدثوه ثم قال لعبد الله أبسط رجلك فمسحها عليه السلام فكأنه لم يشتكها قط وعادت أحسن ما كانت . فانظر رعاك الله الى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب مادامت فى إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضى الله عنهم وأرضاهم

سرية

(ومنها) قتل كعب ولى اليهود مكانه أسير بن رزام فأرسل عليه السلام من يستعلم له خبره فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه سأصنع بمحمد مالم يصنعه أحد قبلى ، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه وسعى فى ذلك . فأرسل عليه السلام عبد الله بن رواحة الخزرجى فى ثلاثين من الأنصار لاستمالته فخرجوا حتى قدموا خيبر وقالوا لأسير : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ، قال: نعم ولى مثل ذلك فأجابوه ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيوليه الرسول على خيبر فيعيش

أهلها بسلام فأجاب إلى ذلك وخرج فى ثلاثين يهوديا كل يهودى رديف لمسلم وبينما هم فى الطريق ندم أسير على مجيئه وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن أمنوه فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن رواحة فقال له : أغدراً ياعدو الله! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامة فخذه ولم يلبث أن هلك فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم وهذا عاقبة الغدر

قصة عكل وعرينة

قدم على رسول الله فى شوال جماعة من عكل وعرينة فأظهروا الاسلام وبايعوا رسول الله وكانوا سقاما مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم فلم يوافقهم هواء المدينة فأمرلهم عليه السلام بذود من الابل معها راع وأمرهم باللحوق بها فى مراعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا، ولما تم شفاؤهم جاوزا الاحسان كفراً فقتلوا الراعى ومثلوا به واستاقوا الابل، فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كرز بن جابر القهرى فى عشرين فارساً فلحقوا بها وقبضوا على جميعهم ولما جىء بهم إلى المدينة أمر عليه السلام أن يمثل بهم كما مثلوا بالراعى فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا بالحرة حتى ماتوا فهكذا يكون جزاء الخائن الذى لا ينتظر منه صلاح وعمل هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم العشيرة وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن المثلة .

سرية

جلس أبو سفيان بن حرب يوما فى نادى قومه فقال: ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدا فانه يمشى بالأسواق لنستريح منه؟ فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد فأعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صبح سادسة من خروجه فسأل عن رسول الله فدل عليه وهو بمسجد بنى عبد الأشهل فلما رآه عليه السلام قال إن هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله مانعى منه فذهب لينحنى على الرسول فجذبه أسيد بن حضير من إزاره وهنالك سقط الخنجر فندم الرجل على فعلته ثم سأله عليه السلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه فخلى عليه السلام سبيله فقال الرجل والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت نفسى ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد فعرفت أنك ممنوع وانك على حق وان حزب أبى سفيان حزب الشيطان ثم أسلم.

وعند ذلك أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى وكان رجلا جريئاً فاتكا فى الجاهلية وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه، فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له فعرف عمرا أحد رجال مكة فقال: هذا عمرو بن أمية ماجاء إلا بشر؛ فلما رآهم علموا به لم يجد مناصا من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا إلى المدينة. وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح مكة للمسلمين ويعتنق الدين الحنيف القويم.

غزوة الحديبية

رأى عليه السلام فى نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين حالقين رؤوسهم ومقصرين فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه حذراً من أن تردهم قريش عن عمرتهم ولكن هؤلاء الأعراب أبطأوا عليه لأنهم ظنوا أن لا ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً وتخلصوا بأن قالوا اشغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدتهم ألفاً وخمسمائة وولى على المدينة ابن أم مكتوم وأخرج معه زوجه أم مسلمة وأخرج الهدى ليعلم الناس أنه لم يأت محاربا ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح الا السيوف في القرب لأن الرسول لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ثم سار الجيش حتى وصل عسفان[1] فجاءه عينه يخبره أن قريشا أجمعت رأيها أن يصدوا المسلمين عن مكة وأن لا يدخلوها عليهم عنوة أبداً وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم فقال عليه السلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله ، فسار بهم فى طريق وعرة ثم خرج بهم الى مستو سهل يملك مكة من أسفلها . فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع الى قريش وأخبرهم الخبر. ولما كان عليه السلام بثنية المرار[2]

---

(١) موضع على مرحلتين الى مكة (٢) مهبط الحديبية

بركت ناقته فزجروها فلم تقم فقالوا خلأت القصواء فقال عليه السلام ما خلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله الا أجبتهم اليها، مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم فى مثل هذا الوقت لظفروا بهم ولكن كف الله أيدى المسلمين عن قريش وكف أيدى قريش عن المسلمين كيلا تنتهك حرمات البيت الذى أراد الله أن يكون حرماً آمنا يوطد المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوتهم فيه، ثم أمرهم عليه السلام بالنزول أقصى الحديبية [1] وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعى رسولا من قريش يسأل عن سبب مجىء المسلمين فأخبره عليه السلام بمقصده فلما رجع بديل الى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لأجداده، وقالوا: أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف! ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الأحابيش وهم حلفاء قريش، فلما رآه عليه السلام قال: هذا من قوم يعظمون الهدى ابعثوه فى وجهه حتى يراه ففعلوا واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك حليس رجع وقال: سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا أيحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب هلكت قريش ورب البيت إن القوم أتوا معتمرين!! فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له: اجلس انما أنت أعرابى لا علم لك بالمكايد، ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف فتوجه الى رسول الله وقال: يا محمد قد

(١) بئر قرب مكة سميت الارض باسمها

جمعت أوباش الناس ثم جئت الى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم! إنها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك؛ فنال منه أبو بكر وقال: نحن ننكشف عنه؟ ويحك! وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده اذا أراد ذلك؛ ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه لا يتوضأ وضوأ الا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر اليه فقال: والله يامعشر قريش جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى عظمته فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فانظروا رأيكم فأنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ماعرض عليكم فانى لكم ناصح؛ مع أنى أخاف أن لا تنصروا عليه. فقالت قريش: لا تتكلم بهذا ولكن نرده عامنا ويرجع الى قابل. ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان رسولا من عنده الى قريش حتى يعلمهم مقصده فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول فى زيارة أقاربهم، وأمر عليه السلام عثمان أن يأتى المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وأن الله مظهر دينه فدخل عثمان مكة فى جوار أبان بن سعيد الأموى فبلغ ماحمل فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبدا. ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت فقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع، ثم إنهم حبسوه فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما سمع ذلك: لا نبرح حتى تناجزهم الحرب.

بيعة الرضوان

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك[1] (سميت بعد بشجرة الرضوان) على الموت فشاع أمر هذه البيعة فى قريش فداخلهم منها رعب عظيم وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلا عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين علهم يصيبون منهم غرة فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم، ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدأوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلا وقتل من المسلمين واحد.

صلح الحديبية

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة فى الصلح فلما جاء قال: يامحمد إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا بل شىء قام به السفهاء منا فابعث الينا بمن أسرت ،فقال حتى ترسلوا من عندكم . وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه ثم عرض سهيل الشروط التى تريدها قريش وهى (١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات (٢) من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشا من المسلمين لايلزمون برده (٣) أن يرجع النبى من غير عمرة هـذا العام ثم يأتى العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح الا السيف فى القراب والقوس (٤) من أراد أنه

(١) أمر عمر بقطعها زمن خلافته لما رأى تبرك الناس بها، فليتأمل .

يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه فقبل عليه السلام كل هذه الشروط . أما المسلمون فداخلهم منها أمر عظيم وقالوا: سبحان الله! كيف نرد اليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً؟ فقال عليه السلام إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا . أما الأمر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً فى قلوبهم لأن الرسول أخبرهم أنه رأى فى منامه أنهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر أبا بكر فى ذلك فقال رضى الله عنه: وهل ذكر أنه فى هذا العام ؟ ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين وكان الكاتب على بن أبى طالب فأملاه عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل :أكتب باسمك اللهم فأمره الرسول بذلك ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما خلفناك أكتب محمد بن عبد الله فأمر عليه السلام عليا بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع فمحاها النبى بيده وكتبت نسختان نسخة لقريش ونسخة للمسلمين. وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل فى قيوده وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه، فقال عليه السلام: اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا قد عقدنا بين القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم . هـذا وقد دخلت قبيلة خزاعة فى عهد رسول الله ودخل بنو بكر فى عهد قريش .

ولما انتهى الأمر أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا

الهدى ليتحللوا من عمرتهم فاحتمل المسلمون من ذلك هما عظيما حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال فدخل عليه السلام على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها: هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا فقالت يارسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمراً عظيما فى الصلح ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون، ولكن اخرج يارسول الله وابدأهم بما تريد فاذا رأوك فعلت تبعوك فتقدم عليه السلام الى هديه فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا، ثم رجع المسلمون الى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر.

ولما قر قرارهم جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط أخت عثمان لأمه فطلبها المشركون فقالت يا رسول إنى امرأة وإن رجعت إليهم فتنونى فى دينى فأنزل الله فى سورة الممتحنة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين وما خرجت الا حباً لله ولرسوله ومتى حلفت لا ترد بل يعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ويجوز للمسلم تزوجها. وفى الآية تحريم امساك الزوجة الكافرة بل ترد

الى أهليها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها (وقد تمكن) أبو بصير عتبة ابن أسيد الثقفى رضى الله عنه من الفرار الى رسول الله فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه فأمره عليه السلام بالرجوع معهما فقال يارسول الله: أتردنى الى الكفار يفتونى فى دينى بعد أن خلصنى الله منهم؟! فقال: إن الله جاعل لك ولاخوانك فرجاً، فلم يجد بداً من اتباعه فرجع مع صاحبيه ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحدهما فقتله وهرب منه الآخر فرجع الى المدينة وقال: يا رسول الله وفت ذمتك أما أنا فنجوت، فقال له اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة فذهب الى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا، وسار اليه أبو جندل بن سهيل واجتمع اليه جمع من الأعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الامداد فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به فى إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق فى إمساك من جاءه مسلما فقبل منهم ذلك وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى لم يتمكنوا من تحملها فى الحديبية حينما أمرهم عليه السلام برد أبى جندل وعلموا أن رأى رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضى الله عنه: ما كان فتح فى الاسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . وفى رجوعه عليه السلام من الحديبية

نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه فى أولها (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) وفى تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمنا لك عن الصديق.

مكاتبه الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش كاتب عليه السلام ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام واتخذ إذ ذاك خاتما من فضة يختم به خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبي بكتاب الى قيصر ملك الروم وأمره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليوصله الى الملك

كتاب قيصر

وكان فى الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى : أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الأريسين [١] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

حديث أبى سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا من قومه أحداً نسأله

(١) "فلاحين

منه وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت
رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى
القدس قال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي
فقال أبو سفيان :أنا لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره فقال
قيصر أدن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا ظهره ثم قال لترجمانه قل لأصحابه
إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي وقد جعلتكم
خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا
الرجل فيكم قال هو فينا ذو نسب قال هل تكلم بهذا القول أحد منكم
قبله قال لا قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال لا قال
فهل كان من آبائه من ملك قال لا قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم
قال بل ضعفاؤهم قال فهل يزيدون أم ينقصون قال بل يزيدون قال هل
يرتد أحد منهم سخطة لدينه قال لا . قال هل يغدر اذا عاهد قال لا ونحن
الآن منه فى ذمة لا ندرى ماهو فاعل فيها قال فهل قاتلتموه قال نعم . قال فكيف
حربكم وحربه قال الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا ، قال فيم يأمركم ؟
قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهى عما كان يعبد آباؤنا
ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، فقال الملك: إنى
سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب
قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا فلو كان
أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم
تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ، فزعمت أن لا فقلت ما كان ليذر

الـكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من
ملك ؟ فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك
أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل
يزيدون أم ينقصون ؛ فقلت بل يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم وسألتك
هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقلت لا : وكذلك الايمان حين تخالط
بشاشته القلوب وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وان الحرب بينكم وبينه
سجال وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك بماذا يأمر فزعمت
أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك
هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبي وقد
علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم وان كان ما كلمتني به حقاً فسيملك
موضع قدمي هاتين ولو أعلم أني أخلص اليه لتكلفت ذلك قال أبو سفيان
فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدري ماقالوا وأمر بنا فأخرجنا
فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال :لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه
ملك بني الأصفر! ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له
ثم أمر بأبوابها فأغلقت ثم قال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد
وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى
الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال :ردوهم علي فقال لهم
إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فسكتوا له ورضوا عنه فغلبه
حب ملكه على الاسلام فذهب بإثمه واثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام
ولكنه رد دحية رداً جميلا.

كتاب أمير بصرى

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى فلما بلغ مؤتة وهى قرية من عمل البلقاء بالشام تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقال له أين تريد قال الشام قال لعلك من رسل محمد قال: نعم ، فأمر به فضربت عنقه ولم يقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره وقد وجد لذلك وجدا شديدا.

كتاب الحارث بن أبى شمر

ووجه عليه السلام شجاع بن وهب الى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبى شمر وكان يقيم بغوطتها وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم:) من محمد رسول الله الى الحارث بن أبى شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يبق ملكك) فلما قرأ الكتاب رمى به ، وقال من ينزع ملكى منى واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين وقال لشجاع أخبر صاحبك بما ترى ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه فى ذلك وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر اليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيء بايليا ما يلزم لزيارته فانه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها فلما راى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

كتاب المقوقس

ووجه عليه السلام حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان فيه (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان توليت فانما عليك أثم القبط ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة الآية) فأوصله له حاطب باسكندرية فلما قرأه قال ما منعه ان كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب. ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله اليه؟ قال أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم. ثم قال إنى قد نظرت فى أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ووجدت معه آلة النبوة إخراج الغائب المستور والأخبار بالنجوى وسأنظر، ثم كتب رد الجواب يقول فيه (بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد ابن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط وبثياب وأهديت اليك بغلة تركبها والسلام) وإحدى الجاريتين مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده

ابراهيم والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ولم يسلم المقوقس

كتاب النجاشي

ووجه عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى بكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة سلام، أما بعد فانى أحمد اليك الله الذى لااله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فانى رسول الله وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى) ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام وقال لعمرو إنى أعلم والله أن عيسى بشر به ولكن أعوانى بالحبشة قليل فانظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب. وقد عرض عمر وعلىّ من بقى من مهاجرى الحبشة الرجوع الى رسول الله بالمدينة وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذى كان أسلم وهاجر بها ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر فتزوج عليه السلام أم حبيبة وهى بالحبشة والذى زوجها له النجاشى بتوكيل منه عليه السلام.

كتاب كسرى

ووجه عليه السلام عبد الله بن حذافة السهمى بكتاب الى كسرى ملك الفرس وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فان أبيت فانما عليك اثم المجوس) فلما وصله الكتاب مزقه استكبارا ولما بلغه عليه السلام ذلك قال (مزق الله ملكه كل ممزق) وقد فعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطا وقد بدأ هذا الشقى بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه الى الرسول من يأتى به اليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ثم أرسل لعامله اليمن ينهاه عما أمره به أبوه

كتاب المنذر بن ساوى

ووجه عليه السلام العلاء بن الحضرمى بكتاب المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه الى الاسلام وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم سلم أنت فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول من أحب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فان عليه الجزية فأسلم وكتب فى رد الجواب (أما بعد يا رسول الله فانى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه وبأرضى مجوس ويهود فأحدث

الى فى ذلك أمرك (فكتب اليه عليه السلام) بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الى المنذر بن ساوى سلام عليك فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد فانى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح لنفسه وانه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وان رسلى قد أثنوا عليك خيراً وانى شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية)

كتاب ملكى عمان

ووجه عليه السلام عمرو بن العاص بكتاب الى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابنى الجلندى سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما فان ملككما زائل وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما)

فلما دخل بناديهما عمر وسأله عبد بن الجلندى عما يأمر به الرسول وينهى عنه فقال يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب فقال ما أحسن هذا الذى يدعو اليه ولو كان أخى يتابعنى لركبنا

حتى نؤمن بمحمد و نصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً. قال عمرو ان أسلم أخوك ملكه رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم فقال عبد: ان هذا الخلق حسن وما الصدقة فأخبره بما فرض الله من الصدقات فى الأموال ولما ذكر المواشى قال ياعمرو ويؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه؟ قال نعم، فقال عبد: والله ما أرى قومى على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا. ثم ان عبداً أوصل عمراً لاخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومكناه من الصدقات.

كتاب هوذة بن على

ووجه عليه السلام سليط بن عمرو العامرى بكتاب الى هوذة بن على ملك اليمامة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هوذة ابن على. سلام على من اتبع الهدى وأعلم أن دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك) فلما جاء الكتاب كتب فى رده (ماأحسن ماتدعو اليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك) ولما بلغ ذلك رسول الله قال لو سألنى قطعة من الارض ما فعلت باد وباد ما فى يديه، فلم يلبث أن مات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة ،وكان عليه السلام يولى على كل قوم قبلوا الاسلام كبيرهم .

السنة السابعة

غزوة خيبر

وفى محرم السنة السابعة أمر عليه السلام بالتجهز لغزو يهود خيبر الذين كانوا أعظم مهيج للاحزاب ضد رسول الله فى غزوة الخندق والذين لايزالون مجتهدين فى محالفة الأعراب ضد رسول الله كما قدمنا ذلك فى قصة كعب بن الأشرف وقد استنفر رسول الله لذلك من حوله من الاعراب الذين كانوا معه بالحديبية وجاء المخلفون عنها ليؤذن لهم فقال عليه السلام لاتخرجوا معى إلا رغبة فى الجهاد أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئا وأمر مناديا ينادى بذلك ثم خرج عليه السلام بعد أن ولى على المدينة سباع ابن عرفطة الغفارى وكان معه من أزواجه أم سلمة. ولما وصل جيش المسلمين الى خيبر التى تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربى رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء فقال: عليه السلام(ارفقوا بانفسكم فانكم لاتدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم) وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلا بعضها عن بعض وهى حصون النطاة وحصون الكتيبة وحصون الشق والاولى ثلاثة حصن ناعم وحصن الصعب وحصن قلة والثانية حصنان حصن أبى وحصن البرىء والثالثة ثلاثة حصون: حصن القموص وحصن الوطيح وحصن السلالم فبدأ عليه السلام بحصون النطاة وعسكر المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل وأمر عليه السلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة. ولما رأى عليه السلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم

بالمراماة وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع فى ذلك اليوم شيئاً وفيه مات محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة وصار عليه السلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ويخلف على العسكر أحد المسلمين حتى اذا كانوا فى الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب بيهودى خارج فى جوف الليل فأتى به رسول الله عليه السلام ولما أدرك الرجل الرعب قال: ان أمنتمونى أدلكم على أمر فيه نجاحكم، فقالوا دلنا فقد أمناك، فقال ان أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غدا فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا فانى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات[1] ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون فانكم تنصبون المنجنيق ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك، فقال عليه السلام لمحمد ابن مسلمة: سأعطى الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها حتى قال عمر بن الخطاب: ما تمنيت الامارة الا ليلتئذ، فلما كان الغد سأل عليه السلام عن على بن أبى طالب فقيل له إنه أرمد فأرسل من يأتيه به ولما جاء تفل فى عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شىء ثم أعطاه الراية فتوجه مع المسلمين للقتال وهناك وجدوا اليهود متجهزين فخرج يهودى يطلب البراز فقتله على ثم خرج مرحب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم وتبعوهم حتى

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبونها وهم جوفها

دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء إلى الحصن الذى يليه وهو حصن الصعب وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر ثم تتبعوا اليهود إلى حصن الصعب فقاتل عنه اليهود قتالا شديدا حتى رد عنه المسلمون ولكن ثبت الحباب بن المنذر ومن معه وقاتلوا قتالا شديداً حتى هزموا اليهود فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه السلام مناديا يقول: كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئاً. ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن قلة فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه، وفى اليوم الرابع دلهم يهودى على جداول الماء التى يستقى منها اليهود فمنعوها عنهم فخرجوا وقاتلوا قتالا شديداً انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشق، فتبعهم المسلمون وبدءوا بحصن أبى فخرج أهله وقاتلوا قتالا شديدا أبلى فيه أبو دجانة الأنصارى بلاء حسنا حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ووجد المسلمون فيه أثاثا كثيراً ومتاعا وغنما وطعاما، وهرب المنهزمون منه إلى حصن البرىء فتمنعوا به أشد التمنع، وكان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع فى قلب أهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد. فوجد فيه المسلمون أوانى لليهود من نحاس وفخار فقال عليه السلام: اغسلوها واطبخوا فيها. ثم تتبع المسلمون بقايا العدو إلى حصون الكتيبة وبدءوا بحصن القموص فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد على بن أبى طالب ومنه سبيت صفية بنت حيى بن

أخطب ، ثم سار المسلمون لحصار حصنى الوطيح والسلالم فلم يقاوم أهلهما بل سلموا طالبين حقن دمائهم وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم. لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوبا واحداً على ظهره فأجابهم رسول الله إلى ذلك وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة قوس عربية ووجدوا صحفا من التوراة فسلموها لطالبيها. وقد أمر عليه السلام بقتل كنانة بن أبى الحقيق لأنه أنكر حلى حيى بن أخطب وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك .

(هذا) والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلا وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلا ،وفى هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لفظها حيث أعلم أنها مسمومة وأكل منها بشر بن البراء فمات لوقته،واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجىء له بالمرأة التى فعلت هذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك فأجابت: قلت إن كان نبياً لن يضره وان كان كاذبا أراحنا الله منه، فعفا عنها عليه السلام .

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه السلام صفية بنت حيى سيد بنى النضير وأصدقها عتقها، وقد أسلمت رضى الله عنها فشرفت بأمومة المؤمنين

النهى عن نكاح المتعة

(ونهى) عليه السلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة ، وهى النكاح لأجل وقد كان حلا فى الجاهلية واستعمل فى بدء الاسلام حتى حرمه الشرع فى هذه السنة (ونهى) كذلك عن أكل لحوم الحمر الأهلية فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها

رجوع مهاجرى الحبشة

(وحين) رجوع المسلمين من خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبى طالب ومعه الأشعريون أبو موسى وقومه بعد أن أقاموا فيها نحوا من عشر سنين آمنين مطمئنين وفرح عليه السلام بقدمهم فرحا عظيما وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحا ، وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين (وقدم) فى هذا الوقت على النبى عليه السلام الدوسيون اخوان أبى هريرة رضى الله عنه وهو معهم فأعطاهم أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتح فدك

وبعد تمام الفتح أرسل عليه السلام من يطلب من يهود فدك[١] الانقياد والطاعة فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال. وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصة ينفق منها على نفسه ويعول منها صغير بنى هاشم ويزوج منها أيمهم

---

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء [1] ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا فى بلادهم آمنين مطمئنين .

فتح وادى القرى

ثم دعا عليه السلام يهود وادى القرى إلى الاستسلام فأبوا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلا وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها عليه السلام وترك الأرض فى أيدى أهلها يزرعونها بشطر ما يخرجون منها، وكذلك صنع بأرض خيبر وكان يرسل اليهم عبد الله بن رواحة لتقدير الثمر وكان تقديره شديدا عليهم فأرادوا أن يرشوه فقال لهم: يا أعداء الله تعطونى السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ولأنتم أبغض إلى من القردة والخنازير ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل. هذا وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق. ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين .

إسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى فى قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم خالد بن الوليد المخزومى وعمرو بن العاص السهمى وعثمان بن أبى طلحة العبدرى فسر

(١) قرية على ثمان مراحل من المدينة

بهم عليه السلام سروراً عظيما وقال لخالد: (الحمد لله الذى هداك؛ قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لايسلمك إلا إلى خير): فقال يارسول الله أدع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك؛ فقال عليه السلام: (الاسلام يقطع ما قبله)

سرية

وفى شعبان بلغه عليه السلام أن جمعاً من هوازن بتربة [1] يظهرون العداوة للمسلمين فأرسل لهم عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلاً فسار اليهم. ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحداً فرجع .

سرية

(ثم) أرسل بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بناحية فدك فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحداً فأخذ نعمهم . أما القوم فكانوا فى الوادى فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلا وهو راجع فتراموا بالنبل . ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالا شديداً حتى قتل غالب المسلمين وجرح بشير جرحاً شديداً حتى ظن أنه مات ، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء الى رسول الله وأخبره الخبر. (وفى) رمضان أرسل عليه السلام غالب بن عبيد الله الليثى إلى أهل الميفعة [2] فى مائة وثلاثين رجلا فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين وفى أثناء الحرب طارد أسامة

---

(١) واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها

(٢) على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد

ابن زيد رجلا من المشركين ، ولما رأى المشرك الموت فى يد أسامة تشهد
فظن أسامة أن عدوه انما قال ذلك تخلصاً فقتله . ولما رجع المسلمون إلى
المدينة وأخبر عليه السلام بفعلة أسامة قال : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله
فكيف تصنع بلا إله إلا الله : قال؟! يارسول الله إنما قالها متعوذاً من القتل
قال عليه السلام: فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟! فقال يارسول
الله: استغفر لى . قال عليه السلام : فكيف بلا إله إلا الله! ! فما زال يكررها
حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم وأنزل الله فى ذلك فى سورة النساء
(وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ) ثم أمر عليه السلام أسامة أن يعتق رقبة
كفارة لأنه قتل خطأ .

سرية

(وفى) شوال بلغه عليه السلام أن عيينة بن حصن واعد جماعة من
غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها يمن وجبار للاغارة على
المدينة فأرسل لهم بشير بن سعد فى ثلاثمائة رجل فساروا إليهم يكمنون
النهار ويسيرون الليل حتى أتوا محلتهم فأصابوا نعما كثيرة وتفرق الرعاء
فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعليا بلادهم ولم يظفر المسلمون إلا برجلين
أسلما؛ ثم رجعوا بالغنائم الى المدينة .

عمرة القضاء

لما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بمن صد معه

فيها ليقضى عمرته واستخلف على المدينة أبا ذر الغفارى وساق معه الهدى ستين بدنة وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد وأحرم عليه السلام من باب المسجد المدنى ولما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه فقيل يا رسول الله : حملت السلاح وقد شرطوا أن لا تحمله ؟ فقال عليه السلام لا ندخل الحرم به ولكن يكون قريباً منا فإن هاجنا هائج فزعنا له. فلما كان بمر الظهران (١) قابله نفر من قريش ففزعوا من هذه العدة وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم فجاءه فتيان منهم وقالوا : والله يا محمد ماعرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً وإنا لم نحدث حدثاً !! فقال: إنا لا ندخل الحرم بالسلاح. ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت فدخل عليه السلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كداء وأمامه عبد الله ابن رواحة يقول: لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهارا للقوة لأن المشركين قالوا: سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب، فقال عليه السلام: رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة، واضطبع عليه السلام بردائه وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة وفعل مثله المسلمون ،وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين كما رأى عليه السلام فى منامه

---

(١) موضع قرب التنعيم

زواج ميمونة

وتزوج صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وخالة عبد الله بن العباس وهى آخر نسائه زواجاً ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان بسرف [١] ولما خرج عليه السلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا، ثم رجع عليه السلام إلى المدينة فرحاً مسروراً بما حباه الله من تصديق رؤياه .

السنة الثامنة

سرية

وفى صفر أرسل عليه السلام غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد [١] فسار القوم حتى إذا كانوا بقديد التقوا بالحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء وكان خصما لدوداً فأسروه، فقال لهم: ما جئت الا للاسلام، فقالوا له إن تكن مسلما لن يضرك رباط ليلة والا استوثقنا منك. ثم ساروا حتى وصلوا محلة بنى الملوح فاستاقوا النعم والشاء وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم مالا قبل لهم به ولكن منّ الله على المسلمين فأرسل سيلا شديداً حال بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نعمهم تساق وهم لا يقدرون على ردها .

---

(١) موضع بين عسفان وقديد

سرية

ولما رجع غالب الى المدينة ظافراً أرسله عليه السلام فى مائتى رجل ليقتص من بنى مرة بفدك وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد فساروا حتى اذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أما بعد فانى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمراً فانه لا رأى لمن لا يطاع) ثم آخى بين الجند فقال: يا فلان أنت وفلان ويافلان أنت وفلان لا يفارق أحد منكم زميله وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدرى؛ فاذا كبرت فكبروا فلما أحاطوا بالعدو وكبر كبروا وجردوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد واستاقوا نعمهم فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة.

سرية

(وفى) ربيع الأول أرسل عليه السلام كعب بن عمير الغفارى إلى ذات اطلاح من أرض الشام فى خمسة عشر رجلا فوجدوا جمعاً كثيراً فدعوهم إلى الاسلام فلم يجيبوا وقاتلوا وكانوا أكثر عدداً فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب بن عمير فانه نجا وأتى بالخبر إلى رسول الله فشق عليه وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك.

غزوة مؤتة

جهز عليه السلام فى جمادى الأولى جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث

ابن عمير الأزدى رسوله إلى أمير بصرى وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم: إن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب، فان أصيب فعبدالله بن رواحة. وكان عدة الجيش ثلاثة آلاف فساروا وشيعهم عليه السلام وكان فيما وصاهم به (أغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانيا ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء) ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤتة [1] مقتل الحارث بن عمير وهناك وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعاً عظيما منهم ومن العرب المتنصرة فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه: أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مدداً أم يقدمون على الحرب؟؟ فقال عبد الله بن رواحة: يا قوم والله إن الذى تكرهون هو ما خرجتم له ـ خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة ما نقاتل إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانما هى إحدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة؛ فقال الناس: صدق والله ابن رواحة ومضوا للقتال فلقوا هذه الجموع المتكاثرة فقاتل زيد بن حارثة رضى الله عنه حتى استشهد فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب وهو يقول :ـ

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لاقيتها ضرابها

---

(١) قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضى الله عنه فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد فقال يخاطب نفسه : —

أقسمت يا نفس لتنزلنه　　طائعة أولا لتكرهنه

ان أجلب الناس وشدوا الرنة　　مالى أراك تكرهين الجنه!

قد طالما كنت مطمئنة　　هل أنت إلا نطفة فى شنه؟

ثم اقتحم بفرسه المعممة ولم يزل يقاتل رضى الله عنه حتى استشهد فهم بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء فقال لهم عقبة بن عامر يا قوم: يقتل الانسان مقبلا خير من أن يقتل مدبراً فتراجعوا واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد وبهمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفا ، فانه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالا شديدا ، وفى غده خالف ترتيب العسكر فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا. ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين وخافوا أن يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطع القتال. وقد نعى النبى صلى الله عليه وسلم زيداً وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عينا رسول الله تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ، وجاءه رجل فقال : يارسول الله إن نساء جعفر

يبكين ، فأمره أن ينهاهن فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهن فلم يطعن ! فأمره فذهب ثانياً ثم جاء فقال : والله لقد غلبننا ، فقال له عليه السلام : أحث فى أفواههن التراب ، ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم يافرار ، فقال عليه السلام بل هم الكرار ! ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراهم أن ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد فى مهارته .

سرية

وفى جمادى الآخرة بلغه عليه السلام أن جمعاً من قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى ليغيروا على المدينة فأرسل لهم عمرو بن العاص فى ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين ، ثم أمده بأبى عبيدة بن الجراح فى مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر ، فلحقوا عمراً قبل أن يصل إلى القوم ، وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو ، فأنكر عليه عمر بن الخطاب فقال أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيسا لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه فامتثل ، ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين . وبينما هم فى الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة فى ليلة باردة فلما أصبح قال: إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول : (وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)، ثم تيمم وصلى ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا المدينة قام رسول الله عليه

السلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هى عادته فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جنبا، فسأله عليه السلام عن ذلك فقال: منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين وصليت جنباً لأن الله يقول: (وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وان أنا اغتسلت هلكت فتبسم عليه السلام وأثنى على عمرو خيرا

سرية

وفى رجب أرسل عليه السلام أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جهينة التى تسكن ساحل البحر وزود عليه السلام هذا الجيش جرابا من التمر فساروا حتى إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو وقد فنى زادهم حتى أكلوا الخبط وهو ورق السمر يبلونه بالماء ويأكلونه إلى أن تقرحت أشداقهم وكان فى القوم الكريم ابن الكريم قيس بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزر فى كل يوم جزور. وفى اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة لأن قيسا كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه، فخاف أبو عبيدة أن لا يفى له أبوه بما استدان، فقال قيس: أترى سعدا يقضى ديون الناس ويطعم فى المجاعة ولا يقضى ديناً استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله؟! ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة فقال قيس بن سعد لأبيه: كنت فى الجيش فجاعوا قال أنحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال أنحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال أنحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال أنحر قال نهيت.

غزوة الفتح الأعظم

اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه وأزال موانعه فقد كان عليه السلام يعلم أنه لاتذل العرب حتى تذل قريش ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوف لفتحها ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية وهو سيد من وفى ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه فقدعلمت أن قبيلة خزاعة دخلت فى عهد رسول الله وقبيلة بكر دخلت فى عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كمنت نارها بظهور الاسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثارهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدة والرجال ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين ولما رأى ذلك حلفاء السيد الأمين أرسلوا منهم وفداً برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال: والله لأمنعنكم مما أمنع نفسى منه ، أما قريش فانهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التى أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداوة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه

فقال يابنية: أرغبت به عنى أم رغبت بى عنه ؟ فقالت: ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فقال لقد أصابك بعدى شر. ثم خرج من عندها وأتى النبى فى المسجد وعرض عليه ماجاء له. فقال له عليه السلام: هل كان من حدث؟ قال لا فقال عليه السلام فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك. فقام أبو سفيان ومشى الى أكابر المهاجرين من قريش علهم يساعدونه على مقصده فلم يجد منهم معينا وكلهم قالوا: جوارنا فى جوار رسول الله فرجع الى قومه ولم يصنع شيئاً فاتهموه بأنه خانهم واتبع الاسلام فتنسك عند الأوثان لينفى عن نفسه هذه التهمة (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة فقال له: يارسول الله أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال نعم ولكن غدروا ونقضوا. ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين حول المدينة وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حربا بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها. فدعا مولاه جل ذكره وقال (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها) فقام حاطب بن أبى بلتعة أحد الذين شهدوا بدرا وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جعل فأعلم الله رسوله ذلك فأرسل فى أثرها علياً والزبير والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة.

معها كتاب تخذوه منها فانطلقوا حتى أتوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها : أخرجى الكتاب ، قالت ما معى كتاب ! فقالوا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتوا به رسول الله فقال عليه السلام : يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل على إنى كنت حليفا لقريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام ، فقال عليه السلام أما أنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم ، وفى ذلك أنزل الله سورة الممتحنة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة شقيق زوجه أم

سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديد الفرح وقال:
﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.
ولما وصل عليه السلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضاً، وقد قابل عليه السلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله فأمره أن يعود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة.
ولما وصل عليه السلام مر الظهران أمر بايقاد عشرة آلاف نار وكان قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته فأرسلوا أبا سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام و بديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فإذاهم بنيران كأنها نيران عرفة فقال أبو سفيان : ماهذه لكأنها نيران عرفة ! فقال بديل بن ورقاء : نيران بني عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان ، فلما سار قال للعباس: إحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر الى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان وهو يسأل عنها ويقول مالى ولها ، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد ابن عبادة فقال سعد : يا أباسفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة؛ فقال أبو سفيان : يا عباس حبذا يوم الذمار ، ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد، فقال عليه السلام : كذب سعد ولكن

هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة ، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون [1] وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدى [2] ودخل هو من أعلاها من كداء ونادى مناديه: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن وهذه أعظم منة له واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذى أسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم ارتد وافترى الكذب على الأمين المأمون فكان يقول : إن محمداً كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد! ومنهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وهبار بن الأسود والحارث ابن هشام وزهير بن أبي أمية وكعب بن زهير ووحشى قاتل حمزة وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل واحد سوى هؤلاء إلا من قاتل ، فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صده فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة ، وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف مانعاً وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمس الرحل وأسامة بن زيد رديفه وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى

---

(١) جبل بمعلاة مكة (٢) كدى كقوى جبل مسفلة مكة على طريق اليمن . وكداء كسحاب جبل بأعلى مكة

وصل الى الجحون موضع رايته وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلا ثم سار و بجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت وطاف سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة اذ ذاك ثلاثمائة وستون صنما فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل وما يبدىء الباطل وما يعيد ، ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وابراهيم فى أيديهما الأزلام فقال عليه السلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط !! وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلا . ويوشك أن نذكر للقارىء اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية .

العفو عند المقدرة

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة وكبر فى نواحيها ، ثم خرج إلى مقام ابراهيم وصلى فيه ثم شرب من زمزم وجلس فى المسجد والناس حوله والعيون شاخصة اليه ينتظرون ماهو فاعل بمشركى قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التى يلزم أن يتعلم منها المسلم أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس فقال عليه السلام : يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال عليه السلام : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ويرحم

الله الامام البوصيرى حيث قال :

وإذا كان القطع والوصل لله — تساوى التقريب والاقصاء

وسواء عليـه فيما أتاه — من سره الملام والاطراء

ولو أن انتقامه لهوى النف — س لدامت قطيعة وجفاء

قام لله فى الأمور فأرضى الله — منه تباين ووفاء

فعله كله جميل وهل ينضـ — ح إلا بمـا حواه الاناء

ثم خطب عليه السلام خطبة أبان فيها كثيراً من الأحكام الاسلامية منها أن لا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ولا تُنكح المرأة على عمتها أو خالتها والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم ولا صلاة بعد الصبح والعصر ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر ، ثم قال يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ثم شرع الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام ، وممن أسلم فى هذا اليوم معاوية بن أبى سفيان وأبو قحافة والد الصديق وقد فرح الرسول كثيراً بأسلامه . وجاء رجل يرتعد خوفا فقال له عليه السلام : (هون عليك فانى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم : فعبد الله بن سعد بن أبي سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان وطلب منه أن يستأمن له رسول الله فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ثم أتى به النبي وقال : يارسول الله قد أمنته فبايعه فأعرض عنه عليه السلام مراراً ثم بايعه ، فلما خرج عثمان وعبدالله قال عليه السلام : أعرضت عنه ليقوم اليه أحدكم فيضرب عنقه، فقالوا: هلا أشرت الينا؟ فقال : لاينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين . وأما عكرمة بن أبي جهل فهرب فخرجت وراءه زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت قد أسلمت قبل الفتح وقد أخذت له أماناً من رسول الله فلحقته وقد أراد أن يركب البحر فقالت: جئتك من عند أبر الناس وخيرهم لا تهلك نفسك واني قد استأمنته لك فرجع ولما رآه عليه السلام وثب قائماً فرحاً به وقال مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً ثم أسلم رضي الله عنه وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها فاستغفر له ، وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الاسلام . وأما هبار بن الأسود فهرب واختفى حتى إذا كان رسول الله بالجعرانة [1] جاءه مسلماً وقال : يا رسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك وكنا يارسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح

---

(١) موضع بين مكة والطائف وبعضهم يضبطه بسكون العين وفتح الراء مخففة

الجميل ، فقال عليه السلام : قد عفوت عنك . (وأما) الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية المخزومى فأجارتهما أم هانىء بنت أبى طالب فأجاز عليه السلام جوارها ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلماً قال له الحمد لله الذى هداك ما كان مثلك يجهل الاسلام وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة . (وأما) صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقى نفسه فى البحر فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحى وقال :يانبى الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه فانك قد أمنت الأحمر والأسود ، فقال عليه السلام :أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: أعطنى علامة فأعطاه عمامته فأخذها عمير حتى إذا لقى صفوان قال له فداك أبى وأمى جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال صفوان: إنى أخافه على نفسى ، قال هو أحلم من ذلك وأكرم وأراه العمامة علامة الأمان فرجع الى رسول الله وقال له: إن هذا يزعم أنك أمنتنى؟ قال: صدق ، قال : أمهلنى بالخيار شهرين؛ قال أربعة أشهر ، ثم أسلم رضى الله عنه وحسن إسلامه . (وأما) هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت وجاءت الى رسول الله فرحب بها وقالت له والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب الى أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب الى أن يعزوا من أهل خبائك

وفود كعب بن زهير

(وأما) كعب بن زهير فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيراً جاء

المدينة بعد أن قدمها رسول الله من مكة فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها :

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول

فقلت خلو اسبيلى لا أبالكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

وقال فيها مادحاً:

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول بردته . (وأما) وحشى قاتل حمزة فكذلك أسلم وحسن إسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام وقد جاءه ابنا أبي لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه السلام .

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو فاستأمن له ابنه عبد الله فأمنه عليه السلام وقال: ان سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الاسلام ، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال: كان والله براً صغيراً براً كبيراً ثم أسلم بعد ذلك

بيعة النساء

هذا ، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء وكن يبايعن على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان

يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين الرسول فى معروف . (ثم) أمر عليه السلام بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة ، وهذا بدء ظهور الاسلام على ظهر البيت الكريم فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حق حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم .

وأقام عليه السلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة وولّى عليها عتاب بن أسيد وجعل رزقه كل يوم درهما ، فكان عتاب رضى الله عنه يقول:لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم .

هدم العزى

(وفى الخامس) من مُقامه عليه السلام بمكة أرسل خالد بن الوليد فى ثلاثين فارسا لهدم هيكل العزى وهى أكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نخلة فتوجه اليها خالد وهدمها .

هدم سواع

(وأرسل عليه السلام) عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لهذيل وهيكله على ثلاثة أميال من مكة فذهب اليه وهدمه

هدم مناة

(وبعث) سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارساً لهدم مناة وهى صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه الى قديد فتوجهوا إليها وهدموها .

غزوة حنين

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان دانت للاسلام جموع العرب ودخلوا فيه أفواجاً ، أما قبيلتا هوازن وثقيف فأدركتهما حمية الجاهلية واجتمع الأشراف منهم للشورى وقالوا : قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا فأجمعوا أمرهم على ذلك وولوا رياستهم مالك ابن عوف النصرى فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر الذين كان رسول الله مسترضعاً فيهم وكان فى القوم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأى وشدة البأس فى الحرب ولتقدم سنه لم يكن له فى هذه الحرب إلا الرأى ، ثم إن مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم ، فلما علم بذلك دريد سأل مالكاً عن السبب فقال : سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه ، فقال دريد : وهل يرد المنهزم شىء إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة ووراءهم الابل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير إليهم وخرج معه اثنا عشر ألف غاز منهم ألفان من أهل مكة والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة وخرج أهل مكة ركباناً ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم ، وخرج فى الجيش ثمانون من المشركين ،

منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه السلام الغزاة وعقد الألوية ، فأعطى لواء المهاجرين لعليّ بن أبي طالب ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن حضير ، وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الأخرى ، ثم ركب عليه السلام بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر . هذا ، وقد أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئا فان مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو فخرج لهم كمين كان مستتراً فى شعاب الوادى ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر ، فلووا أعنة خيلهم متقهقرين ، ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم فى الهزيمة لما لحقهم من الدهشة . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت على بغلته فى ميدان القتال وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وعليّ والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث ومعتب بن أبى لهب ، وكان العباس آخذاً بلجام البغلة وأبو سفيان آخذاً بالركاب ، وكان عليه السلام ينادى : الىّ أيها الناس ولا يلوى عايه أحد وضاقت بالمنهزمين الأرض بما رحبت . أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالاسلام والذين لم ينزعوا عنهم بقة الشرك فمنهم من فرح ومنهم من ساءه هذا الأدبار ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وقال أخ لصفوان بن أمية : الآن بطل السحر ، فقال له صفوان وهو على شركه : أسكت فض الله فاك ! والله لأن يربنى رجل من قريش خير من أن يربنى رجل من هوازن . ومر عليه رجل من قريش وهو يقول : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبداً فغضب صفوان وقال :

ويلك أتبشرنى بظهور الأعراب ؟ وقال عكرمة بن أبى جهل لذلك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك الأمر بيد الله ليس الى محمد منه شيء إن أديل عليه اليوم فان العاقبة له غداً ، فقال سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلافه لحديث ، فقال له : يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع . (وبلغت) هزيمة بعض الفارين مكة ، كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم قال للعباس وكان جهورى الصوت : ناد بالأنصار ياعباس ، فنادى يامعشر الأنصار ياأصحاب بيعة الرضوان فأسمع من فى الوادى وصار الأنصار يقولون : لبيك لبيك ويريد كل واحد منهم أن يلوى عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه وينزل عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم يروها فكر المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكث فتل المشركين وتفرقوا فى كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذرارى وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فأخذوا النساء والذرارى وأسروا كثيراً من المحاربين ، وهرب من هرب ، وجرح فى هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة ، وأسلم ناس كثيرون من مشركى مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين .

(هذا) والذى حصل فى هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب

فان هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركين وأعراب وحديثي عهد باسلام هؤلاء سيان عندهم نصر الأسلام وخذلانه ، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله ، فلاينبغى أن يكون فى الجيش إلا من يقاتل خالصاً مخلصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقاً عن دينه فلا تميل نفسه إلى الفرار خشية ما أعده الله للفارين من أليم العقاب .

ثم أمر عليه السلام بجمع السبي والغنائم ، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة فجمع ذلك كله بالجعرانة . (أما) المشركون فتفرقوا ثلاث فرق : فرقة لحقت بالطائف وفرقة لحقت بنخلة وفرقة عسكرت بأوطاس (١)

سرية

فأرسل عليه السلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعرى فى جماعة منهم أبو موسى الأشعرى فسار إليهم وبددهم وظفر بما بقى معهم من الغنائم ، وقد استشهد أبو عامر فى هذه الغزوة وخلف على الغزاة ابن أخيه أبا موسى فرجع ظافراً منصوراً

غزوة الطائف

وسار عليه السلام بمن معه الى الطائف ليجهز على بقية حياة ثقيف

(١) واد بديار هوازن

ومن تجمع معهم من هوازن وجعل على مقدمته خالد بن الوليد ومر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك النصرى فأمر بهدمه ومر ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه ، فأرسل اليه أن اخرج وإلا حرقنا عليك بستانك ، فامتنع الرجل فأمر عليه السلام بحرقه . ولما وصل المسلمون الى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم فعسكر المسلمون قريب الحصن فرماهم المشركون بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبد الله بن أبى بكر وقد طاوله جرحه حتى أماته فى خلافة أبيه ، ومنهم أبو سفيان بن حرب ففقئت عينه ، وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلا من المسلمين . ولما رأى رسول الله أن العدو متمكن من رميهم ارتفع الى محل مسجد الطائف الآن وضرب لأم سلمة وزينب قبتان هناك واستمر الحصار ثمانية عشر يوما كان فيها ينادى خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد وناداه عبد ياليل عظيم ثقيف لا ينزل اليك منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فان فيه من الطعام مايكفينا سنين فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا ، فأمر عليه السلام بأن ينصب عليهم المنجنيق فنصب ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين[1] لينقبوا الحصن ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم . فأمر عليه السلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً ، فناداه أهل الحصن أن دعها لله وللرحم ، فقال : أدعها لله وللرحم ، ثم أمر من ينادى بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن فخرج اليه

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها

بضعة عشر رجلا . ولما رأى عليه السلام أن تمنع ثقيف شديد وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب أو المقام ، فقال : يارسول الله ثعلب فى حجر إن أقمت أخذته وان تركته لم يضرك ، فأمر عليه السلام بالرحيل وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال : (اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين)

تقسيم السبى

ثم رجع عليه السلام الى الجعرانة حيث ترك السبى فأحصاه وخمّسه وأعطى منه شيئا كثيراً لأناس ضعف اسلامهم يتألفهم بذلك وأعطى أناساً لم يسلموا ليحبب اليهم الاسلام ، ومن الأولين أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب ومائة من الابل ، وكذلك أبناه معاوية ويزيد ، فقال له : بأبى أنت وأمى لأنت كريم فى السلم والحرب . ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبى سفيان فاستزاده فأعطاه ثم استزاده فأعطاه مثلها ، وقال: ياحكيم (إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى) فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ماعداها ، ثم قال : والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذى يستحقه من بيت المال فلا يأخذه . وأعطى عليه السلام عيينة بن حصن مائة من الابل ، وكذلك الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً

نعماً وشاه كان رآه يرمقه فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال نعم ، قال هو لك . فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفس أحد وكان سبب إسلامه . وكان عليه السلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جُعل من الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم وقد عاد ذلك بفائدة عظمى فان كثيرين ممن أعطوا فى هذا اليوم ولم يكونوا أشربوا فى قلوبهم حب الاسلام صاروا بعد من أجلاء المسلمين وأعظمهم نفعاً كصفوان بن أمية ومعاوية بن أبي سفيان والحارث ابن هشام وغيرهم . ثم أمر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقى من الغنائم وقسمه على الغزاة بعد أن اجتمع اليه الأعراب وصاروا يقولون له: إقسم علينا حتى ألجأوه الى شجرة فتعلق رداؤه فقال (ردوا ردائى أيها الناس فوالله إن كان لى شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً) ثم قام الى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال : (أيها الناس والله مالى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة الا الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط فان الغُلول [1] يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة) فصار كل من أخذ شيئا من الغنائم خلسة يرده ولو كان زهيداً ، ثم شرع يقسم فأصاب الرجل أربعة من الابل وأربعون شاة والفارس ثلاثة أمثال ذلك ، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه وقال : (ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟!) فلم يؤده غضبه أن ينتقم لنفسه حاشاه عليه السلام من ذلك بل لم يزد

(١) الاختلاس من الغنيمة

على أن نصح وحذر؛ وقال له عمر وخالد بن الوليد : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه ، فقال . لا ! لعله أن يكون يصلى ، فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ! فقال صلى الله عليه وسلم : إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم . ولما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب وترك الأنصار غضب بعضهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجب يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!!! فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم . فلما اجتمعوا قال : يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتنى عنكم ؟ ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بى؟ وعالة [1] فأغناكم الله بى ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بى ؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة ؟ وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أغضبتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم لشىء قليل من الدنيا ألفت به قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذى لا يزلزل ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحلكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار؛ ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار. فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً ، ثم انصرف عليه السلام وتفرقوا .

---

(١) جمع عائل وهو الفقير

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه صلى الله عليه وسلم وفد هوازن يرأسهم زهير بن صرد وقالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والعمات والخالات وهن مخازى الأقوام ونرغب الى الله واليك يا رسول الله ، وقال زهير إن فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك، ثم قال أبياتا يستعطفه بها :

امنن علينا رسول الله فى كرم	فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها	إذ فوك مملوءة من محضها الدرر
إنا لنشكر للنعماء إن كفرت	وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
إنا نؤمل عفواً منك نلبسه	هدى البرية أن تعفو وتنتصر
فالبس العفو من قد كنت ترضعه	من أمهاتك إن العفو مشتهر

فقال صلى الله عليه وسلم : إن أحب الحديث إلى أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال . وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً أردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا ولا نتكلم فى شاة ولا بعير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما مالى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فاذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولوا : نحن نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله بعد أن تظهروا إسلامكم وتقولوا نحن إخوانكم فى الدين ، ففعلوا . فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (أما بعد فان إخوانكم هؤلاء جاؤا تائبين

وإنى قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله. وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس فأخذه الرسول منهم قرضاً وأمر صلى الله عليه وسلم بأن تحبس عائلة مالك بن عوف النصرى رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أمية . فقال له الوفد : أولئك سادتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما أريد بهم الخير ، ثم سأل عن مالك فقالوا هرب مع ثقيف ، فقال اخبروه أنه إن جاءنى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الأبل ، فلما بلغ ذلك مالكاً نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجعرانة فأسلم وأحرز ماله، واستعمله عليه السلام على من أسلم من هوازن.

عمرة الجعرانة

(ثم) إن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته وكانت إقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ، ثم أمر عليه السلام بالرحيل فسار الجيش آمنا مطمئنا حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذى القعدة.

وغزوة حنين هى التى فرق الله بها جموع الشرك وأذل دولته وأفقد سراة أهله فان هوازن لم تترك وراءها رجلا تمكنه الحرب الا ساقته ولم تترك لها بعيراً ولا شاة الا جاءت به معها فأراد الله إعزاز الاسلام بخذلانه

أعدائه وأخذ أموالهم فانكسرت حدة المشركين ولم يبق فيهم من يمانع أو يدافع ولذلك يمكننا أن نقول ان انكسارهوازن كان خاتمة لحروب العرب فلم يبق فيهم الا فئات قليلة يسوقهم الطيش الى شهر السلاح ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة .

سرية

ولما رجع عليه السلام الى المدينة أرسل قيس بن سعد في أربعمائة ليدعو صداء (قبيلة تسكن اليمن) الى الاسلام فجاء الى رسول الله رجل منهم فقال : يا رسول الله إني جئتك وافداً عمن ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فأمر عليه السلام برد الجيش .

وفود صداء

وخرج الرجل الى قومه فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم فنزلوا ضيوفاً على سعد بن عبادة ، ثم بايعوا رسول الله على الاسلام وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الاسلام وقدم على رسول الله منهم مائة في حجة الوداع.

سرية

ثم أرسل عليه السلام بشر بن سفيان العدوي الى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فرض عليهم ، فلما علم بذلك رسول الله أرسل اليهم عيينة بن حصن في خمسين

فارساً من الأعراب فجاءهم وحاربهم وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً وتوجه بالكل الى المدينة ، فأمر عليه السلام بجعلهم فى دار رملة بنت الحارث .

وفود تميم

فجاء فى أثرهم وفد تميم فيه عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو ابن الاهتم فجلسوا ينتظرون الرسول فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جاف : يا محمد اخرج الينا نفاخرك فان مدحنا زين وإن ذمّنا شين ، فخرج اليهم عليه السلام وقد تأذى من صياحهم وفيهم نزل فى أوائل سورة الحجرات (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ: وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وكان الوقت وقت الظهر فأذن بلال ودخل النبي للصلاة فتعلقوا به يقولون نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم عليه السلام : (ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا) ثم صلى الظهر واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر ، فقال إنه لمطاع فى أنديته سيد فى عشيرته ، فقال الزبرقان : حسدنى يارسول الله لشرفى وقد علم أفضل مما قال . فقال عمرو : إنه لزمن المروءة ضيق العطن لئيم الخال فرئى الغضب فى وجه رسول الله لاختلاف قولَىْ عمرو ، فقال : يارسول الله لقد صدقت فى الأولى وما كذبت فى الثانية رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أسوأ ماعلمت .

فقال عليه السلام (إن من البيان لسحراً) . ثم أسلم القوم فرد النبى عليه السلام عليهم أسراهم وأحسن جائزتهم وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون فى الدين .

سرية

ثم بعث عليه السلام الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بنى المصطلق ، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالا بقدومه ومعهم إبل الصدقة ، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة فى الجاهلية ، فرجع مسرعاً الى المدينة وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر ، فسار اليهم في عسكره خفيةحتى اذا كان بناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح ، فأتاهم خالد فلم ير منهم إلا طاعة ، فرجع وأخبر الرسول فأرسل عليه السلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات ، وفى الوليد نزل فى أوائل الحجرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) .

سرية

ثم بلغ رسول الله أن جمعاً من الحبشة رآهم أهل جدة فى مراكبهم يريدون الاغارة عليها فأرسل لهم علقمة بن مجزز فى ثلاثمائة ، فذهب حتى وصل جدة ونزل فى المراكب ليدركهم ، وكان الأحباش متحصنين فى جزيرة هناك ، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ولم يلق المسلمون كيداً

فرجع علقمة بمن معه . ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا وأمر عليهم عبدالله بن حذافة السهمى ، وكان فيه دعابة فأوقد لهم فى الطريق ناراً وقال لهم : ألستم مأمورين بطاعتى ؟ قالوا : نعم ، قال : عزمت عليكم إلا ماتوا ثبتم فى هذه النار ، فقال بعضهم : ما أسلمنا إلا فراراً من النار وهمّ بذلك بعضهم فمنعهم عبد الله . وقال: كنت مازحاً! فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق)

السنة التاسعة

سرية

فى ربيع الأول أرسل عليه السلام على بن أبى طالب فى خمسين فارساً لهدم الفاس (صنم لطيء) فسار اليه وهدمه وأحرقه ، ولما حارب عبّاده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبيهم وكان فيه سفانة بنت حاتم طيء . ولما رجع على إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمنّ عليها فأجابها لأنه كان من سننه أن يكرم الكرام فدعت له وكان من دعائها (شكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه) . وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً فى إسلام أخيها عدى بن حاتم الطائى الذى كان فر إلى الشام عند مارأى الرايات الاسلامية قاصدة بلاده وكان من حديث مجيئه أن أخته توجهت اليه بالشام وأخبرته بما عوملت به من الكرم ، فقال لها : ما ترين فى أمر

هذا الرجل ؟ فقالت أرى أن تلحق به سريعاً فان يكن نبياً فللسابق اليه فضل وإن يكن ملكاً فأنت أنت . قال : والله هذا هو الرأى .

وفود عدى بن حاتم

فخرج حتى جاء المدينة ولقى رسول الله فقال عليه السلام : من الرجل ؟ قال عدى بن حاتم ، فأخذه إلى بيته وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها ، فقال عدى : والله ماهو بملك . ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفاً فقدمها إلى عدى وقال اجلس على هذه . فقال بل أنت تجلس عليها ، فامتنع عليه السلام وأعطاها له وجلس هو على الأرض ، ثم قال ياعدى : أسلم تسلم قالها ثلاثاً فقال عدى إنى على دين (وكان نصرانياً) فقال له عليه السلام : أنا أعلم بدينك منك ، فقال عدى : أأنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم . ثم عدد له أشياء كان يفعلها اتباعا لقواعد العرب وليست من دين المسيح فى شىء كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم . ثم قال ياعدى : إنما يمنعك من الدخول فى الدين ماترى ، تقول إنما أتبعه ضعفة الناس ومن لاقدرة لهم وقد رمتهم العرب مع حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحيرة ؟ قال لم أرها وقد سمعت بها ، قال: فوالله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك

والسلطان فى غيرهم ؛ وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . فأسلم عدى رضى الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك.

غزوة تبوك

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه فى بلاده وكان ذلك فى زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، فأمر عليه السلام بالتجهز وكان قلما يخرج فى غزوة إلا ورّى بغيرها ليعمى الأخبار على العدو إلا فى هذه الغزوة فانه أخبر بمقصدة لبعد الشقة ولشدة العدو ليأخذ الناس عدتهم لذلك ، وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك وحث الموسرين على تجهيز المعسرين فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً . فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم ارض عن عثمان فانى راض عنه . وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فقال أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، وجاء العباس وطلحة بمال كثير . وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقاً من تمر وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن وجاءه صلى الله عليه وسلم سبعة أنفس من فقهاء الصحابة يطلبون اليه أن يحملهم . فقال لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون . فجهز عثمان ثلاثة منهم وجهز العباس اثنين وجهز يامين بن عمرو اثنين ، ولما اجتمع الرجال

خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون ألفاً وولى على المدينة محمد بن مسلمة وعلى أهله على بن أبى طالب وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أبىّ وقال: يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد!! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ؟ والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال . واجتمع جماعة منهم فقالوا فى حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الأرجاف فبلغه ذلك فأرسل اليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب . وجاء اليه جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج فقالوا يارسول الله ائذن لنا ولا تفتنا لأنا لانأمن من نساء بنى الأصفر ، وجاء اليه المعذرون من الأعراب وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة ليؤذن لهم فأذن لهم ، وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم ، وقد عتب الله عليه فى ذلك الأذن بقوله فى سورة براءة : (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ) ثم قال فى حقهم : (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) ثم كذبهم الله فى عذرهم فقال : (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلٰكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ) ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جل ذكره : (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّازَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) . وتخلف جماعة من

المسلمين لا يتهمون فى إسلامهم منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع وأبو خيثمة. ولما خلف صلى الله عليه وسلم علياً قال المنافقون: قد استثقله فتركه؛ فأسرع إلى رسول الله وشكا له ما سمع، فقال صلى الله عليه وسلم: (أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى). ثم سار صلى الله عليه وسلم بالجيش وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق وفى إعطاء اللواء لأبى بكر آخر غزوة للرسول وتخليف علىّ على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القارىء. وفرق عليه السلام الرايات فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأسيد بن حضير راية الأوس، والحباب بن المنذر راية الخزرج، ولما مر الجيش بالحجر وهى ديار ثمود قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون) ليشعر قلوبهم رهبة الله وكان مستعملا على حرس الجيش عباد بن بشر، وكان أبو بكر يصلى بالجيش ولما وصلوا إلى تبوك وكانت أرضاً لا عمارية فيها، قال الرسول لمعاذ بن جبل: يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملىء بساتين، وقد كان. ولما استراح الجيش لحقه أبو خيثمة وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشتين لهما فى بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاماً وكان يوماً شديد الحر، فلما نظر ذلك قال: يكون رسول الله فى الحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء! ما هذا بالنصف. ثم قال والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيا لى زاداً ففعلتا. ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه وخرج يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك.

وفود صاحب أيلة

هذا، ولم ير صلى الله عليه وسلم بتبوك جيشاً كما كان قد سمع فأقام هناك أياماً جاءه فى أثنائها يوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء[١] وأهل أذرح[٢] وأهل ميناء فصالح يوحنا رسول الله على اعطاء الجزية ولم يسلم وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته :

كتاب صاحب أيلة

بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحوز ماله دون نفسه وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر

كتاب أهل أذرح وجرباء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وإن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبه والله كفيل بالنصح والاحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارها. (ثم) إن الرسول استشار أصحابه فى مجاوزة تبوك إلى ماهو أبعد منها من ديار الشام فقال له عمر : إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال عليه السلام : لو

(١) قرية فى جنوب الشام (٢) مدينة تلقاء السراة

كنت أمرت بالسير لم أستشر ، فقال: يارسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الاسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك فلو رجعنا فى هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً ، فتبع عليه السلام مشورته وأمر بالقفول فرجع الجيش إلى المدينة .

مسجد الضرار

ولما كان على مقربة منها بلغه خبر مسجد الضرار وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين وجاء جماعة منهم الى الرسول طالبين منه أن يصلى لهم فيه فسألهم عن سبب بنائه فحلفوا بالله ان أردنا الا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون فأمر عليه السلام جماعة من أصحابه لينطلقوا اليه ويهدموه ففعلوا . (هذا) ولما استقر عليه السلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً فقبل منهم عليه السلام علانيتهم ووكل ضمائرهم الى الله واستغفر لهم .

حديث الثلاثة الذين خلفوا

وجاءه كعب بن مالك الخزرجى ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الأوسيان مقرين بذنوبهم ، فلما دخل عليه كعب تبسّم تبسُّم الغضب وقال : ماخلفك ؟ فقال يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ؛ ولقد أوتيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخط

على فيه ولئن حدثتك حديث صدق تغضب على فيه ، أنى لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لى من عذر . فقال عليه السلام: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك . وقال صاحباه مثل قوله فقال لهما عليه السلام كما قال لكعب ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم واستأذنت زوج هلال بن أمية فى خدمة زوجها لأنه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها ، ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم فأرسل لهم عليه السلام من يبشرهم بهذه النعمة الكبرى فتلقاهم الناس أفواجاً أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله . فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسروراً فقال أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك، فقال : من عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال بل من عند الله . فقال كعب: يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة لله ولرسوله، فقال عليه السلام : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . ثم قرأ عليه السلام الآيات التى فيها توبته هو وصاحباه فى سورة براءة (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

وفود ثقيف

وعقب مقدمه عليه السلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم تبع أثره عروة بن مسعود الثقفى حتى أدركه قبل أن يصل المدينة فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه ويدعوهم الى الاسلام فقال له إنهم قاتلوك فقال يارسول الله أنا أحب اليهم من أبكارهم فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم لأنه كان فيهم محبباً مطاعا فلما جاء الطائف وأظهر لهم ماجاء به رموه بالنبل فقتلوه وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا أنه لاطاقة لهم بحرب من حولهم من العرب فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلا منهم يكلمه وطلبوا من عبدياليل ابن عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى وقال: لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالاً فبعثوا معه خمسة من أشرافهم فخرجوا متوجهين الى المدينة ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة فى ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس اذا صلوا، وكانوا يغدون الى رسول الله كل يوم ويخلفون فى رحالهم أصغرهم سنا عثمان بن أبى العاص فكان اذا رجعوا ذهب للنبى واستقرأه القرآن واذا رآه نائما استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن وهو يكتم ذلك عن أصحابه ثم أسلم القوم وطلبوا أن يعين لهم من يؤمهم فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصه على الاسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين

كتاب أهل الطائف

ثم كتب لهم كتابا من جملته (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله الى المؤمنين ان عضاه وج وصيده حرام لايعضد شجرة ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك فانه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يؤجل هدم صنهم شهراً حتى يدخل الاسلام فى قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه فرضى بذلك عليه السلام ، ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم : أنا أعلمكم بثقيف اكتموا عنهم إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمداً طلب أموراً عظيمة أبيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنا وشرب الخمر والربا ، فلما حلوا بلادهم جاءتهم ثقيف فقال الوفد : جئنا رجلا فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف ودان الناس له فعرض علينا أموراً شديدة وذكروا ما تقدم . فقالوا والله لا نطيعه أبداً فقالوا لهم أصلحوا سلاحكم ورموا حصونكم واستعدوا للقتال فأجابوا واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة ، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم فقالوا: والله مالنا بحربه من طاقة إرجعوا اليه وأعطوه ماسأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا لم كتمتم علينا ذلك؟ قالوا حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان فأسلموا .

هدم اللات

ولما بلغ رسول الله إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شبعة الثقفى لهدم اللات صنم ثقيف بالطائف فتوجهوا وهدموه حتى سووه بالأرض .

حج أبي بكر

وفى أخريات ذى القعدة أرسل عليه السلام أبا بكر ليحج بالناس فخرج فى ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدى عشرون بدنه أهداها رسول الله وساق أبو بكر خمس بدنات ، ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة فأرسل بها علياً ليبلغها الناس فى يوم الحج الأكبر وقال لا يبلغ عنى الا رجل منى فلحق أبا بكر فى الطريق فقال الصديق : هل استعملك رسول الله على الحج؟ قال لا ولكن بعثنى أقرأ أو أتلو براءة على الناس . فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم علىّ ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض كيف شاءوا وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم الى مدتهم ، ثم نادى لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وكان على يصلى فى هذا السفر وراء أبى بكر رضى الله عنهما .

وفاة ابن أبى

وفى ذى القعدة مات عبد الله بن أبى وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم تطل مثلها وشيع جنازته حتى وقف على قبره ، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب ولده عبد الله بن عبد الله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبد الله بن أبى فيهم وقد نزع ربقة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريم صلى الله عليه وسلم ، وقد نهى الله رسوله بعد

ذلك عن الصلاة على المنافقين فقال جل شأنه فى سورة براءة (وَلَاتُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ)

وفاة أم كلثوم

وفى هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضى الله عنهما

السنة العاشرة

سرية

فى ربيع الآخر أرسل عليه السلام خالد بن الوليد فى جمع لبنى عبد المدان بنجران من أرض اليمن وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاث مرات فان أبوا قاتلهم ، فلما قدم اليهم بعث الركبان فى كل وجه يدعون إلى الاسلام ويقولون : أسلموا تسلموا ، فأسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجاً فأقام خالد بينهم يعلمهم الاسلام والقرآن وكتب الى رسول الله بذلك فأرسل اليه أن يقدم بوفدهم ففعل . وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم ، قال صدقتم ، وأمر عليهم زيد بن حصين .

سرية

وفى رمضان أرسل عليه السلام علياً فى جمع الى بنى مذحج (قبيلة يمانية) وعممه بيده وقال : سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم الى قول : لا إله

إلا الله ، فان قالوا نعم فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك و لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس. ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فلما انتهى اليهم لقى جموعهم فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل فصف على أصحابه وأمرهم بالقتال فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم قليلا ثم لحقهم ودعاهم الى الاسلام فأجابوا وبايعه رؤساؤهم وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا نخذ منها حق الله ، ففعل . ثم رجع الى رسول الله فوافاه بمكة فى حجة الوداع .

بعث العمال على اليمن

ثم بعث عليه السلام الى اليمن عمالاً من قبله فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن [١] وبعث أبا موسى الأشعرى على الكورة السفلى ووصاهما صلى الله عليه وسلم بقوله : (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا) وقال لمعاذ : (إنك ستأتى قوماً أهل كتاب فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله فان أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة فان أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب) وقد مكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله ، أما أبو موسى فقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع .

---

(١) جبل بمعلاة بمكة

حجة الوداع

وفى السنة العاشرة حج صلى الله عليه وسلم بالناس حجة ودع فيها المسلمين ولم يحج غيرها وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذى الحجة وولى على المدينة أبا دجانة الأنصارى وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبى فقال : لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك. ولم يزل صلى الله عليه وسلم سائراً حتى دخل مكة ضحًى من الثنية العليا وهى ثنية كداء. ولما رأى البيت قال اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابةً وبراً ، ثم طاف بالبيت سبعا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عندمقام ابراهيم ثم شرب من ماء زمزم ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته وكان اذا صعد الصفا: يقول لا إله الا الله الله أكبر لا إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . وفى الثامن من ذى الحجة توجه الى منًى فبات بها .

خطبة الوداع

وفى التاسع منه توجه الى عرفة وهناك خطب خطبته الشريفة التى بين فيها الدين كله أسه وفرعه وهاك نصها (الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله

وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير ، أما بعد أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فانى لاأدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ؛ ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها. إن ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية ، أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ان النسىء[1] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان، ألاهل بلغت ؟ اللهم

---

(١) كانت العرب تحرم أربعة أشهر ثلاثة متواليات وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر رجب وكانوا ربما استطالوا هذه الأشهر المتوالية لحاجتهم أن الحرب والقتال فأحلوا المحرم وحرموا صفرا من العام المقبل فهذا هو الذى عابه القرآن عليهم لاتباعهم الهوى فى عقيدتهم.

اشهد . (أيها الناس) إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا باذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن [1] وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد. (أيها الناس) إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . (أيها الناس) ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . (أيها الناس) إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر . من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله) وفى هذا اليوم أمتن الله على المؤمنين بقوله فى سورة المائدة (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

(١) العضل: هو الحبس والتضييق .

الإِسْلاَمَ دِيناً) فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى . (ثم) إنه عليه السلام أدى مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف ، وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل الى المدينة ولما رآها كبر ثلاثاً وقال: لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده)

الوفود

فى هذه السنة والتى قبلها كان وفود العرب الى رسول الله ليبايعوه على الاسلام وكانوا يقدمون أفواجا ، ولما فى أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التى يحتاج ذو الأدب أن يعرفها رأينا أن نذكر لك منها مايزيدك يقينا وينير بصيرتك فنقول :

وفود نجران

ومن الوفود وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبًا دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير مختمين بالذهب ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاءوا بها هدية للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبل البسط وقبل المسوح . ولما جاء وقت صلاتهم صلوا فى المسجد مستقبلين بيت المقدس ، ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه السلام للاسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قبلكم ، فقال عليه السلام : يمنعكم من الاسلام ثلاث ، عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً ، قالوا : فمن مثل عيسى خلق من غير أب ،

فأنزل الله فى ذلك فى سورة آل عمران : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وليظهر الله لهم أنهم فى شك من أمرهم أنزل (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) . فدعاهم صلى الله عليه وسلم لذلك فامتنعوا ورضوا باعطاء الجزية وهى ألف حلة فى صفر وألف حلة فى رجب مع كل حلة أوقية من ذهب ، ثم قالوا أرسل معنا أميناً فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة .

وفود ضمام بن ثعلبة

ومن الوفود ضمام بن ثعلبة ، بينا رسول الله بين أصحابه متكئاً جاء رجل من أهل البادية ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول ، فأناخ جمله فى المسجد ثم قال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فدلوه عليه فدنا وقال: إنى سائلك فمشدد عليك المسألة فلا تجد [1] على فى نفسك ، فقال : سل ما بدالك ، فقال أنشدك بالله : آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال نعم ، فقال أنشدك بالله: آلله أمرك أن نصلى خمس صلوات فى اليوم والليلة ؟ قال اللهم نعم ، فقال أنشدك بالله: آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال اللهم نعم ، قال أنشدك بالله : آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهراً ؟ قال اللهم نعم ، قال أنشدك بالله: آلله أمرك أن نحج

(١) أى لا تغضب

هذا البيت من استطاع اليه سبيلا؟ قال اللهم نعم، قال فانى قد آمنت وصدقت وأنا ضمام بن ثعلبة . ولما ولّى قال عليه السلام: فقه الرجل. ثم ذهب ضمام إلى قومه ودعاهم إلى الاسلام وترك عبادة الأوثان فأسلموا كلهم.

وفود عبد القيس

ومن الوفود عبد القيس وكان من خبرهم أن الرسول كان جالساً بين أصحابه يوماً فقال لهم : سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق لم يكرهوا على الاسلام قد أنضوا الركائب وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس . فلما أتوا ورأوا النبي صلى الله عليه وسلم رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد وتبادروا إلى رسول الله يسلمون عليه وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج وكان أصغرهم سناً فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما ثم جاء يمشى هوناً حتى سلم على رسول الله وكان رجلا دميما ففطن لنظر الرسول إلى دمامته، فقال يارسول الله : إنه لايستقى فى مسوك جلود الرجال وإنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه، فقال صلى الله عليه وسلم : إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لهذا الوفد: مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى، فقالوا :يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة [1] وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر وانا لا نصل اليك إلا فى شهر

(١) لأن ديارهم كانت بساحل الخليج الفارسى وهى ديار ربيعة وبينهم وبين الحجاز أرض نجد

حرام فمرنا بأمر فصل ، فقال : آمركم بالايمان بالله . أتدرون ما الايمان بالله؟ شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس وأنهاكم عن الدباء[١] والحنتم[٢] والنقير[٣] والمزفت[٤] والمراد بذلك ماينبذ فى هذه الأوانى. فقال الأشج: يارسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا ، فرخص لنا فى مثل هذه وأشار إلى يده ، فأومأ عليه السلام بكفيه وقال : يا أشج إن رخصت لك فى مثل هذه شربته فى مثل هذه وفرج بين يديه و بسطها حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف، وإنما خص عليه السلام نهيهم بماذكر لكثرة الأشربة بينهم.

وفود بنى حنيفة

ومن الوفود بنو حنيفة وكان معهم مسيلمة الكذاب وكان مسيلمة يقول : إن جعل لى الأمر من بعده اتبعته ، فأقبل عليه السلام ومعه قيس ابن شماس وفى يد رسول الله قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : ان سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها وإنى لأراك الذى منه رأيت . وكان عليه السلام قد رأى فى منامه أن فى يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما فأوحى الله اليه أن انفخهما فنفخهما فطارا فأولهما صلى الله عليه وسلم كذابين يخرجان من بعده ، فكان مسيلمة أحدهما والثانى الأسود العنسى صاحب صنعاء . وقد أسلم بنو حنيفة .

---

(١) القرع (٢) هو جرار مدهونة بدهان أخضر (٣) هو أصل النخلة ينقر
(٤) ماطلى بالزفت

وفود طيء

ومن الوفود وفد طيء وفيهم زيد الخيل رئيسهم وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حقه ماذكر لى رجل من العرب الا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل ، وسماه صلى الله عليه وسلم زيد الخير .

وفود كندة

ومنهم وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس وكان وجيهاً مطاعاً فى قومه . ولما دخلوا على رسول الله خبأوا له شيئاً وقالوا أخبرنا عما خبأناه لك فقال سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن وان الكاهن والتكهن فى النار . ثم قال : ان الله بعثنى بالحق وأنزل على كتاباً لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقالوا أسمعنا منه فتلا عليه السلام (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) ثم سكت وسكن ودموعه تجرى على لحيته فقالوا: انا نراك تبكى ؛ أفمن مخافة من أرسلك تبكى ؟ قال ان خشيتى منه أبكتنى. بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف ان زغت عنه هلكت ، ثم تلا (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) ثم قال لهم عليه السلام : ألم تسلموا ؟قالوا بلى ، قال مابال هذا الحرير فى أعناقكم ؟ فعند ذلك شقوه وألقوه.

وفود أزدشنوءة

ومنهم وفد أزدشنوءة ورئيسهم صرد بن عبد الله الأزدى فأسلموا وأمّره عليهم وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك.

وفود رسول ملوك حمير

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم الحارث بن عبد كلال والنعمان ومعافر وهمدان وكانوا قد أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك فكتب اليهم النبي صلى الله عليه وسلم:

كتاب ملوك حمير

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى الحارث بن عبد كلال والى النعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان أما بعد فاني أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو، أما بعد فانه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم وأنبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهداه ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبى وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة. أما بعد فان محمداً النبى أرسل الى زرعة بن ذى يزن اذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك ابن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي وان أميرهم معاذ بن جبل

فلا ينقلبن الا راضياً ، أما بعد فان محمداً يشهد أن لا اله الا الله وأنه عبده ورسوله ثم ان مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت من المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ولا تخونوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم وان الصدقة لاتحل لمحمد ولا لأهل بيته انما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل وان مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وفود همدان

ومنها وفد همدان وفيهم مالك بن نمط ، وكان شاعراً مجيداً فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك عليهم مقطعات من الحبرات اليمنية والعمائم العدنية، وقد أنشد مالك لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

حلفت برب الراقصات الى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذى العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد

وقد أمّره صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه، وقد قال الرسول فى حق همدان : نعم الحى همدان ما أسرعها الى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال وفيهم أوتاد .

وفود تجيب

ومنها وفد تجيب قبيلة من كندة وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلا منهم ، معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم فسُرَّ بهم عليه السلام وأكرم مثواهم ، وقالوا : يا رسول الله إنا سقنا إليك حق الله فى

أموالنا ، فقال عليه السلام : (ردوها فاقسموها على فقرائكم) فقالوا : يارسول اللهماقدمنا عليك إلا بمافضل عن فقرائنا، قال أبو بكر : يارسول اللهما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا . فقال عليه السلام: إن الهدى بيد الله فمن أراد به خيراً شرح صدره للايمان. وجعلوا يسألونه عن القرآن فازداد صلى الله عليه وسلم رغبة فيهم ثم أرادوا الرجوع الى أهليهم فقيل لهم : ما يعجلكم ؟ قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا إياه وما ردعلينا ثم جاءوا الى رسول الله فودعوه فأجازهم بأفضل ما كان يجيز به الوفود ثم قال لهم : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا غلام خلفناه فى رحالنا وهو أحدثنا سناً ، قال : فارسلوه الينافأرسلوه فأقبل الغلام وقال : يارسول الله إنا من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حاجتهم فاقض حاجتى . قال : وما حاجتك ؟ قال : تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبي. فقال عليه السلام: اللهماغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه ، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه .

وفود ثعلبة

(ومنها) وفد ثعلبة وفد على رسول الله أربعة منهم مقرين بالاسلام فسلموا عليه وقالوا : يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرون بالاسلام وقد قيل لنا إنك تقول لا إسلام لمن لا هجرة له فقال عليه السلام : (حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم) ، ثم قال لهم : كيف بلادكم ؟ فقالوا مخصبون ، فقال : الحمد لله . ثم أقاموا فى ضيافته أياما ،

وحين إرادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواق من فضة .

وفود بنى سعد بن هذيم

(ومنها) وفد بنى سعد بن هذيم من قضاعة ، قال النعمان منهم : قدمت على رسول الله وافداً فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول الله البلاد وأزاح العرب والناس صنفان إما دخل فى الاسلام راغب فيه وإما خائف السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه فوجدنا رسول الله يصلى على جنازة فى المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم وقلنا حتى يصلى رسول الله و نبايعه . ثم انصرف رسول الله فنظر الينا فدعا بنا فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا من بنى سعد بن هذيم فقال : أمسلمون أنتم ؟ قلنا نعم ، فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ قلنا يارسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك ، فقال عليه السلام أينما أسلمتم فأنتم مسلمون . قال : فأسلمنا وبايعنا رسول الله بأيدينا ، ثم انصرفنا الى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا فبعث عليه السلام فى طلبنا ، فأُتِى بنا اليه فتقدم صاحبنا فبايعه صلى الله عليه وسلم على الاسلام ، فقلنا يارسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا فقال سيد القوم خادمهم بارك الله عليه . قال : النعمان فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبى صلى الله عليه وسلم له . ثم أجازهم وانصرفوا

وفود بنى فزارة

(ومنها) وفد بنى فزارة وفد على رسول الله جماعة منهم مقرين

بالاسلام وهم مسنتون فسألهم عليه السلام عن بلادهم ، فقال رجل منهم : يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وجاعت عيالنا فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا إلى ربك وليشفع لنا ربك اليك ، فقال عليه السلام : سبحان الله ، ويلك هذا ، أنا أشفع إلى ربي فمن ذا الذى يشفع ربنا إليه! لا إله إلا هو العلى العظيم وسع كرسيه السموات والأرض فهى تئط[١] من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الحديث، أى من ثقل الحمل . ثم صعد عليه السلام المنبر ودعا الله عز وجل حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة .

وفود بنى أسد

ومنها وفد بنى أسد وفيهم ضرار بن الأزور وطليحة بن عبدالله الذى إدعى النبوة بعد ذلك فأسلموا وقالوا يارسول الله أتيناك تتدرع الليل البهيم فى سنة شهباء ولم تبعث الينا فأنزل الله فى ذلك (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلون فى الجاهلية من العيافة[٢] والكهانة[٣] وضرب الحصباء فنهاهم عن ذلك كله ، ثم سألوه عن ضرب الرمل فقال: علمه نبى فمن صادف مثل علمه فذاك

(١) أى تصوت
(٢) هى زجر الطير والتخرص على الغيب
(٣) هى الاخبار عن الكائنات

وإلا فلا . ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض وبعد ذلك ودعوا وانصرفوا بعد أن أجيزوا .

وفود بنى عذرة

(ومنها) وفد بنى عذرة ووفد بنى بلىّ ووفد بنى مرة ووفد خولان وهى قبائل باليمن وقد أمرهم عليه السلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار لمن جاوروا وأن لا يظلموا أحداً فان الظلم ظلمات يوم القيامة .

وفود بنى محارب

(ومنها) وفد بنى محارب وكانوا من الذين ردوا الرد القبيح حينما كانَ رسول الله بعكاظ يدعو القبائل الى الله ، فما أعظم منة الله الذى أتى بهؤلاء وكانوا ألد الأعداء مسلمين منقادين

وفود غسان

(ومنها) وفد غسان ووفد بنى عبس ووفد النخع ، وكان عليه السلام يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق ويجيزهم بما يرضيهم ويعلمهم الايمان والشرائع ليعلموا من وراءهم وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لاظهار الدين بين الأعراب فى البوادى

وفاة ابراهيم بن النبى عليه السلام

وفى هذه السنة توفى ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم

السنة الحادية عشرة

سرية

لأربع بقين من صفر جهز عليه السلام جيشاً برياسة أسامة بن زيد الى أبنى[1] حيث قتل زيد بن حارثة والد أسامة وقال له : (سر الى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل أبنى وحرق عليهم وأسرع السير لتسبق الأخبار فان أظفرك الله فأقل اللبث فيهم وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك) . وكان مع أسامة فى هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد . ثم عقد عليه السلام لأسامة اللواء وقال له : أغز باسم الله فى سبيل الله وقاتل من كفر بالله . وقد انتقد جماعة على تأمير أسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين فأبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً وخرج فقال : أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبله ؟! وايم الله إن كان لخليقاً بالامارة وإن ابنه من بعده لخليق بها ، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ وأنهما لمظنة لكل خير فاستوصوا به خيراً فانه من خياركم . ولم يتم لهذا الجيش الخروج فى عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لأن المرض بدأه فاختاره الله للرفيق الأعلى .

---

(١) محل قريب من مؤتة

وسيرى القارىء إن شاء الله خروج هذا الجيش متمماً فى كتابنا إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء .

مرض الرسول صلى الله عليه وسلم

لما تم عليه الصلاة والسلام ما كلف به وأدى ما اؤتمن عليه وهدى الله به أمته اختاره الله للرفيق الأعلى فجلس على المنبر مرة وكان فيما قال : (إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ماعنده فاختار ماعنده) ، فبكى أبو بكر وقال : يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فقال عليه السلام : (ان آمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر فلو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام . لا يبقى فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر) . وقد بدأه عليه السلام مرضه فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة فى بيت ميمونة واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً كان فى خلالها ينتقل الى بيوت أزواجه ، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرض فى بيت عائشة الصديقية فأذِنَّ له ، ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال : هريقوا على من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلى أعهد الى الناس ، فأجلس فى مخضب وصب عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتن ، وكان هـذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التى كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه .

صلاة أبى بكر بالناس

ولما تعذر عليه الخروج الى الصلاة قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فرضيه عليه السلام خليفة له فى حياته . ولما رأت الأنصار اشتداد وجع الرسول أطافوا بالمسجد فدخل العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئاً على علىّ والفضل وتقدم العباس أمامهم والنبى معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر وثار الناس اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فان الله تعالى يقول (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) وإن الأمور تجرى باذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فان الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) وأوصيكم بالأنصار خيراً فانهم الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم ، ألم يشاطروكم من الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن وُلى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ، ألا فان موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده على غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى . وبينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر يصلى بهم إذا برسول الله

صلى الله عليه وسلم قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وهم فى صفوف الصلاة ثم تبسم بضحك فنكص أبو بكر رضى الله عنه على عقبه ليصل الصف وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة ، وهم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله فأشار اليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله صلى عليه وسلم دنياه ولحق بمولاه وكان ذلك فى يوم الاثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٣) فيكون عمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية كاملة وثلاثة أيام وإحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يوماً ، وكان أبو بكر غائبا بالسنح وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد فسل عمر سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله وقال إنما أرسل اليه كما أرسل إلى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة ، والله إنى لأرجو أن يقطع أيدى رجال وأرجلهم، فلما أقبل أبو بكر وأخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله فجثا يقبله ويبكى ويقول : توفى والذى نفسى بيده . صلوات الله عليك يارسول الله ما أطيبك حياً وميتاً بأبى أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين . ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت) وتلا قوله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) وقوله (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَائِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّٰهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّٰهُ الشَّاكِرِينَ) قال عمر: فكأنى لم أتل هذه الآية قط. ثم مكث عليه الصلاة والسلام فى بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة عليهم فغسل ودفن، وكان الذى يغسله على بن أبى طالب ويساعده العباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة، ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره فى بيته ودخل الناس عليه أرسالا متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ثم حفر له لحد فى حجرة عائشة حيث توفى وأنزله القبر على والعباس وولداه الفضل وقثم ورش قبره بلال بالماء ورفع قبره عن الأرض قدر شبر.

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك للمسلمين ما إن اتبعوه لم يضرهم شيء كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وترك أصحابه البررة الكرام يوضحون الدين ويتممون فتح البلاد ويظهرون فى الدنيا شمس الدين الاسلامى القويم حتى يتم الله كلمته ويحق وعده وقد فعل، فنسأل الله أن يقدرنا على أداء شكره على هذه المنة العظمى والنعمة الكبرى.

شمائله عليه السلام

منح الله سبحانه نبينا صلى الله عليه وسلم من كمالات الدنيا والآخرة

مالم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده ، ولا بد أن نأتى لك فى هذا الباب[١] بنبذة يسيرة من محاسن صفاته وأحاسن آدابه لتكون لك نموذجاً تسير عليه حتى تكون على قدم نبيك صلى الله عليه وسلم فتستحق الحمد فى الدنيا والذخر فى الأخرى . فاعلم أرشدنى الله وإياك وهدانا للصراط السوى أن خصال الجلال والكمال فى البشر نوعان : ضرورى دنيوى اقتضته الجبلة وضرورة الحياة ومكتسب دينى وهو مايحمد فاعله ويقرب الى الله زلفى . فأما الضرورى فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان فى جبلته عليه السلام من كمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وفصاحة اللسان وقوة الحواس والأعضاء واعتدال الحركات وشرف النسب وعزة القوم وكرم الأرض ، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة اليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه . (أما المكتسبة الأخروية) فسائر الأخلاق العلية والآداب من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها وهى التى يجمعها حسن الخلق . فاذا نظرت رعاك الله الى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة وفى جبلة الخلقة وجدته عليه السلام حائزاً لجميعها محيطاً بشتات محاسنها . (فأما) الصورة وجمالها وتناسب أعضائه فى حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه صلى الله عليه وسلم كان أزهر اللون[٢]

(١) جل ما ذكر فى الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب الشفاء للقاضى عياض رحمه الله

(٢) نير اللون أو حسنه

الدعج [١] أنجل [٢] أشكل [٣] أهدب الأشفار [٤] أبلج [٥] أزج [٦] أقنى [٧] أفلج [٨] مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية تملأ صدره ، سواء البطن عظيم الصدر عظيم المنكبين [٩] ضخم العظلم عبل [١٠] العضدين والذراعين والأسافل رحب الكفين والقدمين سائل الأطراف أنور المتجرد دقيق المسربة [١١] ربعة القد ليس بالطويل البائن [١٢] ولا القصير المتردد [١٣] ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب الى الطول الاطاله صلى الله عليه وسلم رجْل الشعر اذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام ، اذا تكلم رئى كالنور يخرج من بين ثناياه ، أحسن الناس عنقاً ليس بمطهم [١٤] ولا مكلثم [١٥] متماسك البدن ضرب اللحم . قال البراء بن عازب : ما رأيت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه وإذا ضحك يتلألأ فى الجدر . وفى حديث ابن أبى هالة : يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . وقال على فى آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها (٢) واسع العين مع حسن (٣) فى بياض عينيه حمرة (٤) كثير شعر حروف الاجفان (٥) مضىء الوجه مشرقه (٦) دقيق الحاجبين فى طول (٧) مرتفع قصبة الانف مع أحيداب يسير فيها (٨) مفرج بين الثنايا والرباعيات (٩) المنكب مجمع رأس العضد والكتف (١٠) ضخم (١١) المسربة شعر دقيق من الصدر الى البطن (١٢) مفرط الطول (١٣) المتناهى فى القصر (١٤) المطهم البائن الكثير اللحم (١٥) المكلثم صغير الدقن

(وأما) نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى فى ذلك بخصائص لم توجد فى غيره. ثم تمها بنظافة الشرع. قال عليه السلام: بنى الدين على النظافة، وقال أنس: ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله. وعن جابر أنه عليه السلام مسح خده قال فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار. قال غيره: مسها بطيب أو لم يمسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها يضع يده على رأس الصبى فيعرف من بين الصبيان بريحها. وروى البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر: لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يمر فى طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه.

(وأما) وفور عقله صلى الله عليه وسلم وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم. ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته للعامة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلا عما أفاد من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سابق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يمتر فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة. وكان عليه السلام اذا قام فى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه وبذلك فسر قوله تعالى (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) وقالت عائشة: كان عليه السلام يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء وكان يعد في الثريا أحد عشر نجما، وجاءت الأخبار أنه صرع ركانة أشد أهل وقته، وكان دعاه الى الاسلام. وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشيه كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث. وفى

صفته عليه السلام أن ضحكه كان تبسما اذا التفت التفت معاً واذا مشى مشى تقلعاً كأنما ينحط من صبب . وأما فصاحة اللسان و بلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع وفصاحة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله . من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس كلامه مع قريش ككلامه من أقيال حضرموت وملوك اليمن وعظماء نجد بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ وما انتهجته من طرق البلاغة ليبين للناس ما نزل اليهم وليحدث الناس بما يعلمون .

(وأما) كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها مالا يوازى فصاحة وبلاغة كقوله : المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . وقوله : الناس كأسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ماترى له ، والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره ، والمستشار مؤتمن ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم . وقوله أسلم تسلم واسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان أحبكم الى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون . وقوله : لعله كان يتكلم بما لايعنيه أو يبخل بما لايغنيه ، وقوله :

ذو الوجهين لايكون وجيهاً عند الله . ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ومنع وهات وعقوق الأمهات ووأد البنات . وقوله : اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ، وخير الأمور أوسطها . وقوله : أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وقوله الظلم ظلمات يوم القيامة . وقوله فى بعض دعائه : اللهم انى أسألك رحمة تهدى بها قلبى وتجمع بها أمرى وتلم بها شعثى وتصلح بها رغائبى وتزكى بها عملى وتلهمنى بها رشدى وترد بها ألفتى وتعصمنى بها من كل سوء ، اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء ونزل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء . الى غير ذلك مما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده مما لاخلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لايقاس بها غيره وحاز سبقاً لايقدر قدره . وقد قال أصحابه : مارأينا الذى هو أفصح منك فقال وما يمنعنى وإنما نزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين، وقال مرة أخرى: بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد . جمع بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهى الذى مدده الوحى الذى لايحيط بعلمه بشر .

(وأما) سرو نسبه وكرم بلده ومنشئه فما لايحتاج الى اقامة دليل عليه ولا بيان مشكل ولاخفى منه فانه نخبة بنى هاشم ونخبة قريش وصميمها وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده . وقد قدمنا لك فى أول الكتاب مافيه الكفاية فى هذا المقام .

أما ماتدعو اليه ضرورة الحياة فمنه ما الفضل فى قلته ومنه ما الفضل فى كثرته ومنه ماتختلف الأحوال فيه ، فالأول كالغذاء والنوم ولم تزل العرب والحكماء قديماً تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة مسبب لمضار الدنيا والآخرة جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس وامتلاء الدماغ ، وقلته دليل على القناعة وملك النفس وقمع الشهوة مسبب للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن ، كما أن النوم دليل على الفسولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة مسبب الكسل وعادة العجز وتضييع العمر فى غير نفع وقساوة القلب وغفلته وموته . وكان عليه السلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل وحض عليه. قال عليه السلام: (ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ! حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) . ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب . وقالت عائشة رضى الله عنها : لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قط وإنه كان فى أهله لايسألهم طعاماً ولا يتشهاه إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب . وفى صحيح الحديث : (أما أنا فلا آكل متكئاً) والاتكاء هو التمكن للأكل والتقعدد فى الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التى يعتمد فيها الجالس على ماتحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل ويستكثر منه والنبي عليه السلام إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعياً ويقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وكذلك نومه كان قليلا ومع ذلك فقد قال : إن عينى تنامان ولا ينام قلبي .

وأما ما الفضل فى كثرته فكالجاه وهو محمود عند العقلاء عادة بقدر جاهه عظمه فى القلوب وقد قال تعالى فى صفة عيسى عليه السلام (وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد رزق الحشمة والمكانة فى القلوب والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه فى أنفسهم خفية حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته كما ذكرنا ذلك مراراً ، وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روى عن قيلة إنها لما رأته أرعدت من الفرق فقال : يامسكينة عليك السكينة . وفى حديث أبى مسعود أن رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال له عليه السلام : هون عليك فانى لست بملك .

وأما عظيم قدره بالنبوة وشريف منزلته بالرسالة وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة فى الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية ثم هو فى الآخرة سيد ولد آدم .

وأما ما تختلف فيه الحالات فى التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله ككثرة المال فصاحبه على الجملة معظم عند العامة لاعتقادها توصله به الى حاجاته وتمكنه فى أغراضه والا فليس فضيلة فى نفسه فمتى كان بهذه الصورة وصاحبه منفقاً له فى مهماته ومهمات من قصده وأمله يصرفه فى مواضعه مشتريا به المعالى والثناء الحسن والمنزلة فى القلوب كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا واذا صرفه فى وجوه البر وأنفقه فى سبيل الخير وقصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة كان فضيلة عند الكل بكل حال ، ومتى كان صاحبه ممسكا له غير موجهه وجوهه حريصا على جمعه عاد كثره كالعدم وكان منقصة فى صاحبه ولم يقف به على جدد السلامة بل

أوقعه فى وهدة رذيلة البخل ومذمة النذالة . فالتمدح بالمال ليس لذاته بل للتوصل به الى غيره وتصريفه فى متصرفاته ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتى خزائن الأرض ومفاتيح البلاد وأحلت له الغنائم وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق وجُلب اليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشىء منه ولا أمسك منه درهما بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين وقال : (مايسرنى أن لى أحداً ذهباً يبيت عندى منه دينار إلا ديناراً أرصده لدينى) وأتته دنانير مرة فقسمها وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال : الآن استرحت . ومات ودرعه مرهونة فى نفقة عياله واقتصر فى نفقته وملبسه ومسكنه على ماتدعو ضرورته اليه وزهد فيما سواه فكان يلبس ماوجده فيلبس فى الغالب الشملة والكساء الخشن والبُرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر . فأنت ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاز فضيلة المال بالزهد فيه وانفاقه على مستحقيه .

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة وهى المسماة بحسن الخلق فجميعها قد كانت خلق نبينا صلى الله عليه وسلم على الانتهاء فى كمالها والاعتدال فى غايتها حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) قالت عائشة : كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه . وقال عليه السلام : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، وقال أنس : كان عليه السلام أحسن الناس خلقا . وكانت له هذه الآداب الكريمة

كما كانت لاخوانه من الأنبياء جبلة خلقوا عليها ثم يتمكن الأمر لهم وتترادف نفحات الله عليهم وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة فى تحصيل هذه الخصال الشريفة دون نهاية ولا ممارسة ، وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة ولكننا نذكر أصولها ونشير الى جميعها ونحقق وصفه عليه السلام بها إن شاء الله :

فأصل فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها العقل الذى منه ينبعث العلم والمعرفة ويتفرع عن هذا ثقوب الرأى وجودة الفطنة والاصابة وصدق الظن والنظر للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن السياسة والتدبير واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل ، وقد بلغ عليه السلام منه ومن العلم الغاية التى لم يبلغها بشر سواه . يعلم ذلك من تتبع مجارى أحواله واطراد سيره وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سيره وحكم حديثه وعلمه بما فى التوراة والانجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسات الأنام وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة والشيم الحميدة الى فنون العلوم التى اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة وإشارته حجة كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم ولا الجلوس الى علمائهم بل نبى أمىّ لايعرف شيئاً من ذلك حتى شرح الله صدره وأبان أمره وعلمه وبحسب عقله كانت معارفه عليه السلام الى سائر ماعلمه الله وأطلعه عليه من علم مايكون وما كان وعجائب قدرته وعظيم ملكوته قال تعالى :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

وأما الحلم والاحتمال والعفو والقدرة والصبر على ما يكرهه فما أدب الله به نبيه فقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ، وقال له (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) وقال (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)وقال (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامُورِ) وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه السلام بنهاية هذه الأوصاف ، فما من حليم إلا عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة ونبينا لا يزيد مع كثرة الايذاء إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلما . قالت عائشة رضى الله عنها : ما خير عليه السلام فى أمرين قط الا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس منه وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله . ولما فعل به المشركون ما فعلوا فى أحد وطلب منه أن يدعو عليهم قال : اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون . وحسبك فى هذا الباب ما فعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزؤوا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيره من مشركى العرب حتى تمالأ عليه جمعهم ، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح وقال : ما تقولون إنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وعن أنس : كنت مع النبى عليه السلام وعليه بُرد غليظ الحاشية فجذبه اعرابى بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه

ثم قال . يا محمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله عندك فانك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت النبى ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابى مافعلت بى ، قال: لا ، قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك عليه السلام ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر . قالت عائشة . ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما ضرب خادماً ولا امرأة ؛ فصلى الله تعالى عليه وأقر عينه باتباع المسلمين سنته .

(وأما) الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان عليه السلام لا يوازى فى هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى . وصفه بهذا كل من عرفه ، قال جابر رضى الله عنه : ما سئل عليه السلام عن شىء فقال لا ، وقال ابن عباس: كان عليه السلام أجود الناس بالخير وأجود ما كان فى شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة ، وقالت خديجة فى صفته عليه السلام مخاطبة له : إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم . وحسبك شاهداً فى هذا الباب ما فعله مع هوازن من رد السبى اليها وما فعله يوم تقسيم السبى من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيم الأعطية . وقد استوفينا ذلك فى موضعه . وحمل اليه عليه السلام تسعون ألفاً فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها . وجاءه رجل فسأله فقال : ما عندى شىء ولكن ابتع على فاذا جاءنا شىء قضيناه . فقال له عمر : ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره ذلك عليه السلام فقال له رجل من الأنصار :

يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا ، فتبسم عليه السلام وعرف البشر فى وجهه وقال : بهذا أمرت . والأخبار بجوده وكرمه عليه السلام كثيرة يكفى منها لتعليمك ما ذكرناه .

(ومنها) الشجاعة والنجدة فكان عليه السلام منهما بالمكان الذى لا يجهل ، قد حضر المواقف الصعبة وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، وما من شجاع الا أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وحسبك ما فعله فى حنين وأحد مما ذكرناه مستوفى . وقال ابن عمر : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال على : انا كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب الى العدوّ منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا . وقال أنس : كان عليه السلام أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم عليه السلام راجعا قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عرى والسيف فى عنقه وهو يقول : لن تراعوا .

(وأما) الحياء والاغضاء فكان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء ، قال أبو سعيد الخدرى : كان عليه السلام أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان اذا كره شيئا عرفناه فى وجهه ، وكان عليه

السلام لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكرهه حياء وكرم نفس . قالت عائشة : كان عليه السلام اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا بل يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟ ينهى عنه ولا يسمى فاعله ، وقالت رضى الله عنها: لم يكن عليه السلام فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح .

(وأما) حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فيما انتشرت به الأخبار الصحيحة ، قال على رضى الله عنه : كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة وكان عليه السلام يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه ويتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الخلق سواء ، بهذا وصفه ابن أبى هالة . وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه قال تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) وقال تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) وكان

عليه السلام يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعاً ويكافىء عليها ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر . وقال أنس : ما التقم أحد أذن النبى يحادثه فنحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد ، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ، ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهى أو قيام وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب .

(وأما) الشفقة والرأفة والرحمه بجميع الخلق فقد وصفه الله بها فى قوله (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) وقال (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : أأحسنت اليك ؟ قال الاعرابى : لا ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل اليه وزاده شيئاً ثم قال : أأحسنت اليك ؟ فقال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام إنك قلت ماقلت وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء فان أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب مافى صدورهم عليك . قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشى جاء فقال عليه

السلام : إن هذا الأعرابى قال ماقال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك ؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام : مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بينى وبين ناقتى فانى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار . وقال عليه السلام : لا يبلغنى أحد منكم عن أصحابى شيئاً فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر . وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوز فى صلاته . وعن ابن مسعود كان عليه السلام يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

(وأما) خلقه عليه السلام فى الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فروى عن عبد الله بن أبى الحمساء قال: بايعت النبي عليه السلام ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو مكانه ، فقال : يافتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك! وكان إذا أُتِىَ بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة، انها كانت تحب خديجة. وكان عليه السلام يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . ووفد عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه: نكفيك ؟ فقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم . وفى حديث خديجة : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .

(وأما) تواضعه عليه السلام على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد

الناس تواضعاً ، وأقلهم كبراً وحسبك أنه خير بين أن يكون نبياً ملكا أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وخرج عليه السلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا ، فقال : لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء و يجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس. وقال عليه السلام : (لا تطرونى كما اطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وحج عليه السلام على رحل رث وعليه قطيفة ماتساوى أربعة دراهم فقال : اللهم اجعله حجاً لارياء فيه ولا سمعة . هذا وقد فتحت عليه الأرض وأهدى فى حجه هذا مائة بدنة ، ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل وقال للوازن زن وأرجح ، ثم قال : فوثب إلى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله قال : صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله

(وأما) عدله عليه السلام وأمانته وعفته وصدق لهجته فكان آمن الناس وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محادوه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، وقد قدمنا ذلك فى سيرته عليه السلام قبل النبوة . وفى الحديث عنه عليه السلام: ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك

رقها . قال أبو العباس المبرد قسم كسرى أيامه فقال : يوم الريح يصلح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للهو والشرب ويوم الشمس للحوائج ، ولكن نبينا عليه السلام جزأ نهاره ثلاثة أجزاء جزء لله وجزء لأهله وجزء لنفسه ، ثم جزأ جزأه بين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول: (أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى فان من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر) وكان عليه السلام لا يأخذ أحداً بذنب أحد ولا يصدق أحداً على أحد .

(وأما) وقاره عليه السلام وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فكان عليه السلام أوقر الناس فى مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان إذا جلس احتبى بيديه ، وكذلك كان أكثر جلوسه محتبياً . وكان كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان كلامه فصلا لا فضول ولا تقصير وكان يضحك أصحابه عند التبسم توقيراً له واقتداء به، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وقال ابن أبى هالة : كان سكوته صلى الله عليه وسلم على أربع على الحلم والحذر والتقدير والتفكر . وقالت عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً لو عده العادّ لأحصاه ، وكان يحب الطيب والرائحة الحسنة ويستعملهما كثيراً ويحض عليهما . ومن مروءته صلى الله عليه وسلم نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلى، والأمر بالسواك وإنقاء البراجم والرواجب (مواصل الاصابع من ظاهر الكف وباطنها)

(وأما) زهده عليه السلام فقد قدمنا لك فيه ما فيه الكفاية ، وحسبك شاهداً على تقلله من الدنيا وإعراضه عن زهرتها وقد سيقت اليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها أن توفى عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله وهو يدعو ويقول : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ، وقالت عائشة رضى الله عنها : ما شبع عليه السلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله ، وقالت : ماترك عليه السلام ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيراً ، ولقد مات وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى ، وقال : إنى عرض على أن تجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب أجوع يوماً وأشبع يوما فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك . وقالت عائشة : إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً إن هو إلا التمر والماء ، وعن أنس: ما أكل عليه السلام على خوان ولا فى سكرجة ولا خُبِز له مرقق ولا رأى شاة سميطا قط . وفى حديث عائشة : كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته مسحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه فثنيناه ليلة بأربع ؛ فلما أصبح قال : مافرشتم لى ؟ فذكرنا له ذلك فقال : ردوه بحاله فان وطأته منعتنى الليلة صلاتى وقالت عائشة : لم يمتلىء جوف النبى عليه السلام شبعاً ولم يبعث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة أحب اليه من الغنى وان كان ليظل جائعاً يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد كنت أبكى رحمة له مما أرى به وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع

وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك ؛ فيقول : ياعائشة مالى وللدنيا إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى ، إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم ، وما من شىء أحب الى اللحوق باخوانى وأخلائى . قالت : فما أقام بعد الا أشهراً حتى توفى صلوات الله عليه وسلامه .

(وأما) خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه ، ولذلك قال : لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، أرى مالا ترون وأسمع مالاتسمعون أطّت (صوتت) السماءوحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى ، لوددت أنى شجرة تعضد . وكان عليه السلام يصلى حتى ترم قدماه فقيل له : أتكلف هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً !) . وقالت عائشة رضى الله عنها كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة وأيكم يطيق ما كان يطيق ؟ وقالت : كان يصوم حتى نقول لايفطر ويفطر حتى نقول لايصوم . وقال عوف بن مالك : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلى فقمت معه فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا مر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والعظمة ، ثم سجد

وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك . وقال بعضهم : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ، وفى وصف ابن أبى هالة : كان متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة . وعن على رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال : (المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبي وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز فخرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خلقى وقرة عينى فى الصلاة وثمرة فؤادى فى ذكره وغمى لأجل أمتى وشوقى الى ربى) فجزاه الله من نبى عن أمته خيراً ، ورحم الله عبداً تأمل فى هذه الشمائل الكريمة والخصال الجميلة فتمسك بها واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحوز شفاعته يوم الفزع الأكبر ويرضى الله عنه ، فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير بمنك وكرمك ياأرحم الراحمين .

معجزاته عليه السلام

اذا تأمل المتأمل ماقدمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله لم يمتر فى صحة نبوته وصدق دعوته ، وقد كفى هذا غير واحد فى إسلامه والايمان به كعبد الله بن سلام فانه قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر اليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه

ليس بوجه كذاب . وروى مسلم أن ضماداً لما وفد عليه قال له صلى الله عليه وسلم (إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادى له وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله)فقال له ضماد :أعد علىّ كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك . ولما بلغ ملك عمان أن رسول الله عليه السلام يدعوه الى الاسلام قال: والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى لايأمر بخير الا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شيء الا كان أول تارك له وانه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعود وأشهد أنه نبى وقال ابن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك بالخطر

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من المعجزات مالا يفى به العد فهو أكثر الانبياء آية وأظهرهم برهاناً ، وسنذكر لك فى هذا الفصل من الآيات ماتقربه عينك ويزداد به يقينك مما رواه الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم وأثبته المحدثون فى صحاحهم ونبدأ منها بأظهرها شأناً وأوضحها بياناً وهو القرآن الشريف وإعجازه

(اعلم) أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الاعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة : —

(أولها) حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب مايقيد الألباب ، جعل

الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به الى كل سبب فيخطبون بديهاً فى المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الاحن ويهيجون الدمن ويجرئون الجبان ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا ، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية ، وكلاهما له فى البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة والقدح الفالج والمهيع الناهج لايشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم ، قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها وعلوا صرحاً لبلوغ أسبابها فقالوا فى الخطير والمهين وتفننوا فى الغث والسمين وتقاولوا فى القل والكثر وتساجلوا فى النظم والنثر فما راعهم الا رسول كريم بكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أحكمت آياته وفصلت كلماته وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول وتضافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه وتبارت فى الحسن مطالعه وحوت كل البيان جامعه وبدائعه واعتدل مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا وأشهر فى الخطابة رجالا وأكثر فى الشعر والسجع ارتجالا وأوسع فى الغريب واللغة مقالا بلغتهم

التى بها يتحاورون ومنازعهم التى عنها يتناضلون صارخاً بهـا فى كل حين ومقرعاً لهم بضعاً وعشرين عاماً على رؤوس الملأ أجمعين (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) فلم يزل يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم أشد التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاعتزاز بالافتراء وقولهم (إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر وافك افتراه وأساطير الأولين) والمباهتة والرضا بالدنية كقولهم (قُلُوبُنَا غُلْفٌ وَفِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ وَلَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) والادعاء مع العجز كقولهم (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا) وقد قال لهم (وَلَنْ تَفْعَلُوا) فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخافهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم والا لم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين وأتوا اليه مذعنين وأنت اذا تأملت

قوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) وقوله (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) وقوله (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)وقوله(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) وقوله (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وأشباهها من الآى بل أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها ، وإن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا جمة وعلوما زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها وكثرة المقالات فى المستنبطات عنها ، ثم هو فى سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التى يضعف فى عادة الصفحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها ثم اذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها وتناصف فى الحسن وجه مقابلتها ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معادة لمعادها

(الوجه الثانى) من إعجاز القرآن صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء

عليه ووقفت عليه مقاطع آية وانتهت فواصل كلماته اليه ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه بل حارت فيه عقولهم، وتدلهت دونه أحلامهم ولم يهتدوا الى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر ،والاعجاز بكل واحد من النوعين والايجاز والبلاغة بذاتها أو الأسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع إعجاز لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منهما ، اذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها .

(الوجه الثالث) من الاعجاز ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات ومالم يكن ولم يقع فوقع فوجد كما ورد وعلى الوجه الذى أخبر كقوله تعالى (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) وقوله عن الروم (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ) وقوله (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) وقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) وقوله (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا) فكان جميع هـذا كما أخبر فغلبت الروم فارس ودخلت الناس فى الدين أفواجاً واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم فى وقت من أقصى بلاد الأندلس غربا الى أقاصى الهند شرقاً ومن بلاد الأناضول شمالى الى أقاصى السودان جنوبا وقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فكان كذلك الى الآن

والحمد لله وقوله (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) فكان كذلك فى بدر والآية نزلت بمكة وقوله (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ) فكان كذلك مما اطلع عليه قارئ هذه السيرة وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم فى حلفهم كقوله (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ) وقوله (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَالَا يُبْدُونَ لَكَ) وقوله (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى الدِّينِ) الى غير ذلك من الآيات البينات .

(الوجه الرابع) ماأنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لايعلم منه القصة الواحدة الا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك فيورده عليه السلام على وجهه ويأتى به على نصه فيقر العالم بذلك على صحته وصدقه وان مثله لم ينله بتعليم وقد علموا إنه صلى الله عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسه ولا مجالسه لم يغب عنهم ولا جهل حاله أحد منهم وكثيرا ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا كقصص الأنبياء وبدء الخلق وما فى الكتب السابقة مما صدقه فيها العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ماذكر منها ولم يؤثر أن واحدا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحا ولا سقيما من صحفه بعد أن قرعهم ووبخهم بقوله (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ

فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . ومما يدل على ان أهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحداهم فيه الله بقوله (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ثم حتم عدم إجابتهم بقوله (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) فما سمع عن أحدمنهم انه تمنى ذلك ولو بلسانه مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه . ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا وقد قدمنا ذلك في فصل وفودهم . ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر الروعة التي تلحق قلوب سامعيه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وانافة خطره حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : ان القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو الحكم وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته اياه مع تلاوته توليه اقبالا وتكسبه هشاشة لميل قلبه اليه وتصديقه به . قال تعالى (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ) وقال تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) ومن وجوه إعجاز القرآن كونه آية باقية لاتعدم مابقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال :(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) وسائر معجزات الأنبياء لم يبق الا خبرها والقرآن الى وقتنا هذا حجة قاهرة ومعارضة ممتنعة والاعصار كلها طافحة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة

والملحد فيهم كثير والمعاند للشرع عتيد فما منهم من أتى بشئ يؤثر في معارضته ولا ألف كلمتين في منافضته ولا قدر فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك الا بزند شحيح ، بل المأثور عن كل من رام ذلك القاؤه في العجز بيديه والنكوص على عقبيه . ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه السلام في القرآن قال : ان الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً وسنة خالية ومثلا مضروباً فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن حكم به أقسط ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ومن حكم بغيره قصمه الله هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب .

(ومن) معجزاته صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر ، وقد قدمنا حديثه مستوفى

(ومن) معجزاته صلى الله عليه وسلم نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته ، وقد روى هذا الجم الغفير من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود قال أنس : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس ماء للوضوء فلم يجدوه فأتى النبي صلى الله

عليه وسلم بوضوء فوضع فى الاناء يده وأمر الناس أن يتوضؤا منه . قال فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤا عن آخرهم فقيل : كم كنتم ؟ قال زهاء ثلاثمائة . وقال ابن مسعود بينما نحن مع النبى صلى الله عليه وسلم وليس معنا ماء فقال لنا اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فصبه فى اناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، وقال جابر عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء الا مافى ركوتك فوضع يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قيل ؟ كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة ، وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة ومثل هذا فى هذه المواطن الحفيلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة الى المحدث به لأنهم كانوا أسرع شىء الى تكذيبه لما جبلت عليه نفوسهم من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل ، فهؤلاء قدروا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم له

ومما يشبه هذا تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته كما ورد عن معاذ بن جبل فى قصة غزوة تبوك وانهم وردوا العين وهى تلمع بشىء من ماء مثل الشراك فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع فى شىء ثم غسل عليه السلام فيه وجهه ويديه وأعاده فيها فجرت بماء كثير فاستقى الناس ، وفى رواية ابن اسحاق فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق ثم قال

يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملىء جناناً . وقد قدمنا ذلك فى غزوة تبوك . وروى عن البراء وسلمة بن الأكوع تكثير عين الحديبية بدعوته عليه السلام . وروى أبو قتادة أن الناس شكوا الى رسول الله العطش فى بعض أسفاره فدعا بالميضأة فجعلها فى صبنه (مابين الكشح الى الابط) ثم التقم فمها فالله أعلم أنفث فيها أم لا ، فشرب الناس حتى رووا وملؤا كل اناء معهم نخيل لى انها كما أخذها منى وكانوا اثنين وسبعين رجلا . ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم فى محال مختلفة بحيث لايشك أحد فى صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها

(ومن) ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم روى طلحة انه عليه السلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت إبطه فأمر بها عليه السلام ففتتت وقال فيها ما شاء الله أن يقول ، وروى جابر انه عليه السلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق وقال جابر فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وان برمتنا لتغط كما هى وان عجيننا ليخبز ، وكان عليه السلام قد بصق فى العجين والبرمة وبارك : وروى أبو أيوب أنه صنع لرسول الله وأبى بكر طعاماً يكفيهما فأطعم منه عليه السلام مائة وثمانين رجلا . وروى مثل ذلك كثير من الصحابة ، كعبد الرحمن بن أبى بكر ، وسلمة بن الأكوع ، وأبى هريرة ، وعمر بن الخطاب ، وأنس بن مالك ، رضوان الله عليه أجمعين

(ومن) معجزاته عليه السلام قصة حنين الجذع قال جابر بن عبدالله :

كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل فكان عليه السلام اذا خطب يقوم الى جذع منها ، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار وفى رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره . وفى رواية سهل وكثر بكاء الناس لما رأوه به . وفى رواية المطلب وانشق حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت زاد غيره فقال عليه السلام ان هذا بكى لما فقد من الذكر وزاد غيره والذى نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا الى يوم القيامة تحزنا على رسول الله فأمر به فدفن تحت المنبر ، وهذا الحديث خرجه أهل الصحة ورواه من الصحابة كثيرون ورواه عنهم من التابعين ضعفهم وبمن دون عدتهم يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب ، والله المثبت على الصواب

(ومن) معجزاته عليه السلام إبراء المرضى وذوى العاهات فقد أصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها عليه السلام فكانت أحسن عينيه وأحدهما وبصق على أثر سهم فى وجه أبى قتادة فى يوم ذى قرد فما ضرب عليه ولا قاح وأصاب ابن ملاعب الأسنة استسقاء فبعث الى النبى عليه السلام فأخذ بيده حثوة من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله فأخذها يرى أنه قد هزىء به فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله وتقدم حديث على ورمده في غزوة خيبر وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عده ورواه ثقات المسلمين الاعلام

(أما) مامنحه الله إياه من إجابة دعواته فروى عن أنس بن مالك قال قالت أمى أم سليم يارسول الله خادمك أنس ادع الله له فقال اللهم أكثر

ماله وولده وبارك له فيما آتيته قال أنس : فوالله ان مالى لكثير وان ولدى وولد ولدى ليعادون اليوم نحو المائة ، ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانون ألفا وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير وردت عليه تحمل من كل شىء فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها .

(ودعا) لمعاوية بالتمكين فى الأرض فنال الخلافة ودعا لسعد باجابة الدعوة فما دعا على أحد إلا استجيب له وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب أن يعز الاسلام به وقال لأبى قتادة أفلح وجهك اللهم بارك فى شعره وبشره فمات وهو ابن سبعين سنة كأنه ابن خمس عشرة ودعواته عليه السلام المستجابة أكثر من أن تحصى يطلع عليها قارىء سيرتنا هذه .

(أما) ما أطلعه الله عليه من علم مالم يكن فمما صارت به الركبان فعن حذيفة رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك الى قيام الساعة إلاحدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابى هؤلاء وأنه ليكون منه الشىء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه وماأدرى أنسى أصحابى أم تناسوه والله ماترك عليه السلام من قائد فتنة الى أن تنقضى الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا اسمه واسم أبيه واسم قبيلته . وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ماعلم به أصحابه مماوعدهم به من الظهور على أعدائه وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة الى مكة لاتخاف إلا الله وأن

المدينة ستغزى ويفتح خيبر على يد على فى غد يومه ومايفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر ، وقدمنا كثيراً من ذلك فى هذه السيرة وقدمنا مافى القرآن من ذلك وهذا يغنينا عن الاطالة فى هذا المقام فحسبك ما سمعت .

(ومما) ينير بصيرتك أيها القارىء مامنّ الله به على رسولنامن عصمته له من الناس وكفايته من آذاه قال تعالى (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) وقال (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) وقال (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) وقال (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) ولما نزل (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) صرف حجابه وقال انصرفوا فقد عصمنى الله ، وقد قدمنا حديث دعثور وإرادته قتل النبي صلى الله عليه وسلم وعصمة الله لنبينا وذكرنا كثيراً مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكايد فكفاه الله شره ومامنّ الله به عليه ليلة الهجرة وحديث سراقة فى الطريق وعلى الجملة فيكفينامن هذ الباب أنه عليه السلام مكث بين أعداء ألداء بمكة ثلاث عشرة سنة وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين فما تمكن أحد من إيصال أذى اليه صلى الله عليه وسلم بل كفاه مولاه شر أعدائه حتى أظهر الدين وتمم

والحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافىء مزيده ونسأله أن يوفق قارئى هذ السيرة الى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وأنصاره .

﴿قدتم بحمده تعالى طبع كتاب نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين﴾

فهرس

(كتاب نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين)

صفحة

٣ خطبة الكتاب
٥ النسب الشريف
٧ زواج عبد الله بآمنة
٨ الرضاع
٩ حادثة شق الصدر
٩ وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب
١٠ السفر الى الشام المرة الاولى
١١ حرب الفجار
١٢ حلف الفضول
١٣ رحلته الى الشام المرة الثانية
١٤ زواجه بخديجة
١٤ بناء البيت
١٦ معيشته عليه السلام قبل البعثة
١٨ سيرته فى قومه قبل البعثة
١٩ ما أكرمه الله به قبل النبوة
٢١ تبشير التوراة به
٢٣ تبشير الانجيل به
٢٤ حركة الافكار قبل البعثة

صفحة

٢٦ بدء الوحى
٢٨ فترة الوحى
٢٨ عود الوحى
٢٩ الدعوة سراً
٣٥ الجهر بالتبليغ
٣٨ الايذاء
٤٤ اسلام حمزة
٥٣ هجرة الحبشة الاولى
٥٤ اسلام عمر
٥٥ رجوع مهاجرى الحبشة
٥٨ كتابة الصحيفة
٥٨ هجرة الحبشة الثانية
٥٩ نقض الصحيفة
٦٠ وفود نجران
٦١ وفاة خديجة رضى الله عنها
٦١ زواج سودة
٦٢ زواج عائشة رضى الله عنها
٦٣ هجرة الطائف
٦٥ الاحتماء بالمطعم بن عدى

صفحة	
٦٥	وفد دوس
٦٦	الاسراء والمعراج
٦٩	العرض على القبائل
٧٠	بدء اسلام الانصار
٧١	العقبة الاولى
٧٢	العقبة الثانية
٧٤	هجرة المسلمين الى المدينة
٧٥	دار الندوة
٧٦	هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم
٧٩	النزول بقباء
٧٩	هجرة الانبياء
٨٠	أعمال مكة
٨١	مسجد قباء
٨٢	الوصول الى المدينة
٨٢	أول جمعة
٨٣	النزول على أبي أيوب
٨٤	نزول المهاجرين
٨٤	اخوة الاسلام
٨٥	هجرة أهل البيت
٨٥	حمى المدينة
٨٦	منع المستضعفين من الهجرة

صفحة	
٨٦	السنة الاولى — بناء المسجد
٨٧	بدء الأذان
٨٩	يهود المدينة
٩١	المنافقون
٩٢	معاهد اليهود
٩٢	مشروعية القتال
٩٤	بدء القتال
٩٥	سرية
٩٦	وفيات
٩٧	السنة الثانية — غزوة ودان
٩٧	غزوة بواط
٩٧	غزوة العشيرة
٩٨	غزوة بدر الاولى
٩٨	سرية
١٠٠	تحويل القبلة
١٠٠	صوم رمضان
١٠٠	صدقة الفطر
١٠١	زكاة المال
١٠١	غزوة بدر الكبرى
١١٢	أسرى بدر
١١٣	الفداء

صفحة

[illegible] العتاب فى الفداء
١١٨ غزوة قينقاع
١٢٠ جلاء قينقاع
١٢٠ غزوة السويق
١٢١ صلاة العيد
١٢٢ زواج على بفاطمة عليهما السلام
١٢٢ السنة الثالثة
١٢٢ قتل كعب بن الأشرف
١٢٤ غزوة غطفان
١٢٤ غزوة بحران
١٢٥ سرية
١٢٥ غزوة أحد
١٣٤ غزوة حمراء الأسد
١٣٥ حوادث
١٣٦ السنة الرابعة
١٣٧ سرية
١٣٨ سرية
١٣٩ غزوة بنى النضير
١٤١ غزوة ذات الرقاع
١٤١ غزوة بدر الآخرة
١٤٢ حوادث
١٤٢ السنة الخامسة غزوة دومة الجندل

صفحة

١٤٣ غزوة بنى المصطلق
١٤٦ حديث الافك
١٥٠ غزوة الخندق
١٥٣ الخدعة فى الحرب
١٥٥ هزيمة الأحزاب
١٥٦ غزوة بنى قريظة
١٥٨ زواج زينب بنت جحش
١٦١ الحجاب
١٦٤ فرض الحج
١٦٤ السنة السادسة ـ سرية
١٦٥ غزوة بنى لحيان
١٦٦ غزوة الغابة
١٦٧ سرية
١٦٧ سرية
١٦٨ سرية
١٦٨ سرية
١٦٩ سرية
١٦٩ سرية
١٧٠ سرية
١٧٠ سرية
١٧١ قتل أبى رافع
١٧٢ سرية

صحيفة	
١٧٣	قصة عقل وعرينة
١٧٤	سرية
١٧٥	غزوة الحديبية
١٧٨	بيعة الرضوان
١٧٨	صلح الحديبية
١٨٢	مكاتبة الملوك
١٨٢	كتاب قيصر
١٨٢	حديث أبى سفيان
١٨٥	كتاب أمير بصرى
١٨٥	كتاب الحارث بن أبى شمر
١٨٦	كتاب المقوقس
١٨٧	كتاب النجاشى
١٨٨	كتاب كسرى
١٨٨	كتاب المنذر بن ساوى
١٨٩	كتاب ملكى عمان
١٩٠	كتاب هوذة بن على
١٩١	كتاب السنة السابعة غزوة خيبر
١٩٤	زواج صفية
١٩٥	النهى عن نكاح المتعة
١٩٥	رجوع مهاجرى الحبشة
١٩٥	فتح فدك
١٩٦	صلح تيماء

صحيفة	
١٩٦	فتح وادى القرى
١٩٦	اسلام خالد ورفيقه
١٩٧	سرية
١٩٧	سريه
١٩٨	سرية
١٩٨	عمرة القضاء
٢٠٠	زواج ميمونة
٢٠٠	السنة الثامنة
٢٠٠	سرية
٢٠١	«
٢٠١	«
٢٠١	غزوة مؤتة
٢٠٤	سرية
٢٠٥	سرية
٢٠٦	غزوة الفتح الأعظم
٢١١	العفو عند المقدرة
٢١٤	وفود كعب بن زهير
٢١٥	بيعة النساء
٢١٦	هدم العزى
٢١٦	هدم سواع
٢١٦	هدم مناة
٢١٧	غزوة حنين

٢٢٠ سرية
٢٢١ غزوة الطائف
٢٢٢ تقسيم السبى
٢٢٥ وفود هوازن
٢٢٦ عمرة الجعرانة
٢٢٧ سريه
٢٢٧ وفود صداء
٢٢٧ سرية
٢٢٨ وفود تميم
٢٢٩ سرية
٢٢٩ سرية
٢٣٠ السنة التاسعة
٢٣٠ سرية
٢٣١ وفود عدى بن حاتم
٢٣٢ غزوة تبوك
٢٣٥ وفود صاحب أيلة
٢٣٥ كتاب صاحب أيلة
٢٣٥ كتاب أهل أذرح وجرباء
٢٣٦ مسجد الضرار
٢٣٦ حديث الثلاثة الذين خلفوا
٢٣٨ وفود ثقيف
٢٣٩ كتاب الطائف
٢٣٩ هدم اللات
٢٤٠ حج أبى بكر
٢٤٠ وفاة ابن أبى
٢٤١ وفاة أم كلثوم
٢٤١ السنة العاشرة
٢٤١ سرية
٢٤١ سرية
٢٤٢ بعث العمال على اليمن
٢٤٣ حجة الوداع
٢٤٣ خطبة الوداع
٢٤٦ الوفود
٢٤٦ وفود نجران
٢٤٧ وفود ضمام بن ثعلبة
٢٤٨ وفود عبد القيس
٢٤٩ وفود بنى حنيفة
٢٥٠ وفود طىء
٢٥٠ وفود كندة
٢٥١ وفود أزد شنوءة
٢٥١ وفود رسول ملوك حمير
٢٥١ كتاب ملوك حمير
٢٥٢ وفود همدان
٢٥٢ وفود تجيب

٢٥٣ وفود ثعلبة
٢٥٤ وفود بنى سعد بن هديم
٢٥٤ وفود بنى فزارة
٢٥٥ وفود بنى أسد
٢٥٦ وفود بى عذرة
٢٥٦ وفود بنى محارب
٢٥٦ وفود غسان
٢٥٦ وفاه ابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم
٢٥٧ السنة الحادية عشر
٢٥٧ سرية
٢٥٨ مرض الرسول عليه السلام
٢٥٨ صلاة أبى بكر بالناس
٢٦٠ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٦١ شمائله عليه السلام
٢٨١ معجزاته عليه السلام



نخبة من مطبوعاتنا العلمية

- ٥٠٠ سنن الامام النسائى ٨ أجزاء
- ٢٥٠ صحيح مسلم بشرح الامام النووى ١٨ جزء
- ٤٠ تيسير الوصول للشيبانى ٤ أجزاء
- ٢٥ البيان والتبيين للجاحظ ٣ أجزاء
- ٢٥ النهاية فى غريب الحديث ٤ أجزاء
- ١٠ الهداية الى الصراط المستقيم
- ٧ المحرر فى بيان الاحكام الشرعية
- ٢٥ المدخل لابن الحاج ٤ أجزاء
- ٢٠ الفهرست لابن النديم مجلد
- ١٠ بيان المرام من تفسير آيات الاحكام
- ١٠ بلوغ المرام من ادلة الاحكام
- ٦٠ رسائل اخوان الصفا ٤ اجزاء
- ١٠ اتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء
- ١٥ الفتوحات الاسلامية جزآن مجلد
- ٢٥ نهج البلاغة شرح محمد عبده
- ١٠ تاريخ عمر بن عبد العزيز للجوزى
  تاريخ عمر بن الخطاب للجوزى
- ١٠ هدى الرسول لمحمد أبو زيد
- ٦ الاسلام والرد على منتقديه لمحمد عبده
- ١٠ مفتاح الخطابة والوعظ لمحمد احمد العدوى

- ٢٠ الاخلاق عند الغزالى لزكى مبارك
- ٣ الاسلام ماضيه وحاضره
- ٣ غريب القرآن للسجستانى
- ٢٠ الفتوحات الربانية لمحمد الحكيم
- ١٥ الانتصار والرد على ابن الروندى
- ٥ نهج البردة لشوقى
- ٦ الفوائد لابن قيم الجوزى
- ٢٠ مبارق الازهار
- ٢٥ الترغيب والترهيب للمنذرى ٤ج
- ١٠ جواهر البخارى لمصطفى عماره
- ٨ مفتاح السنة للخولى
- ١٠ الدر النضيد للمزيد
- ١٥ شرح شرعة الاسلام لابن أبى بكر
- ١٠ الشفاء للقاضى عياض (مجلد)
- ٤٠ زهر الآداب للحصرى القيروانى ٤ أجزاء
- ١٠ أدب الكاتب لابن قتيبة (مجلد)
- ٢٠ تاريخ الأمم الاسلامية للخضرى جزآن
- ١٠ فقه اللغة للثعالبى (مجلد)
- ٦ الصاحبى لابن فارس

﴿ للمكتبة فهرست يرسل مجانا لمن يطلبه ﴾